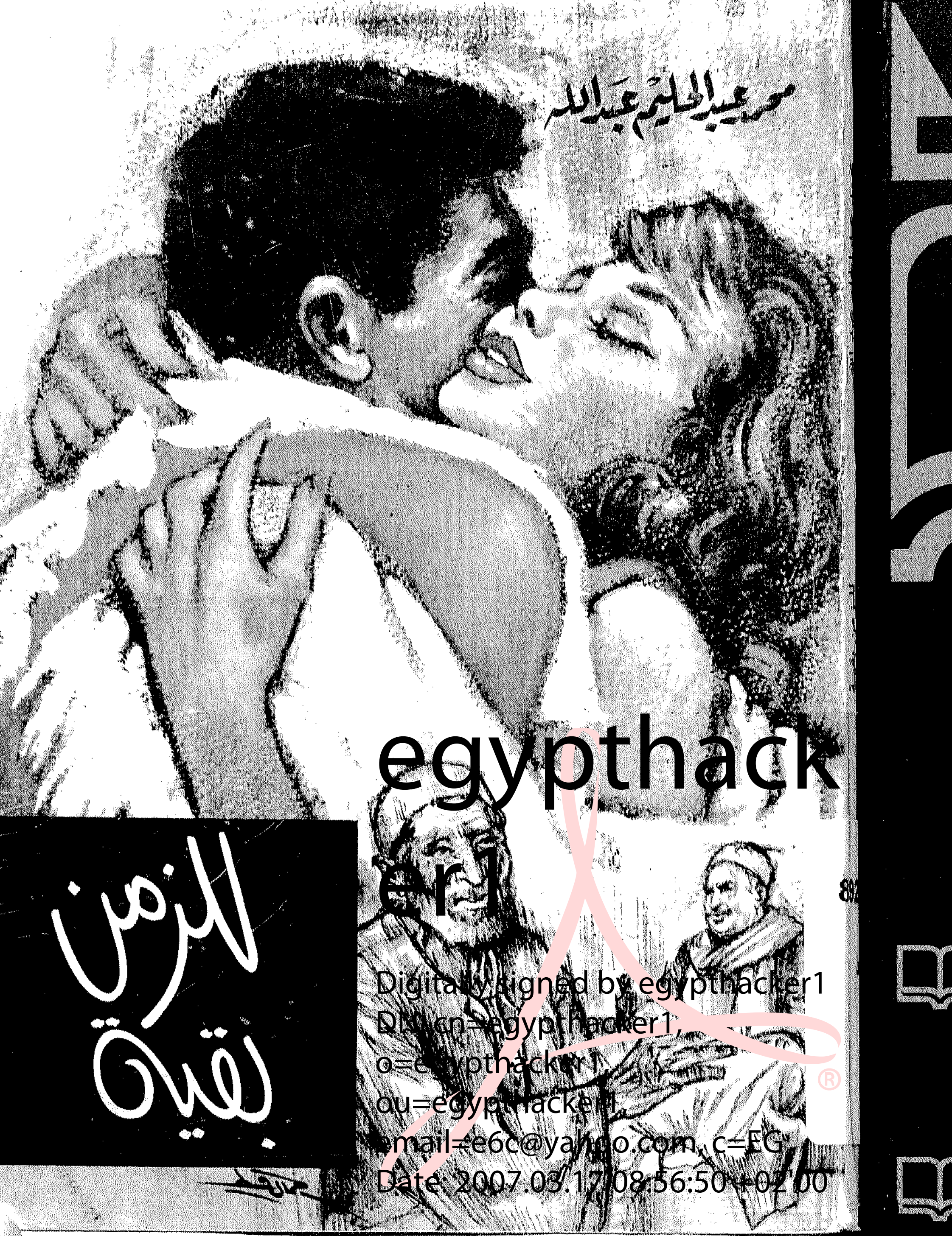

محمد عبد الحليم عبد الله
للزمن
بقية

مطبوعات مكتبة مصر

لِلزمن بقيّة

تأليف
محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

القسم الأول

١

ذكريات أول مغامرة جدية فى حياته عادت إليه .. أيامها كان فى التاسعة عشرة من العمر .. رسب فى شهادة إتمام الدراسة الثانوية ..

الرسوب أيامها كان عارا ..

لكنه فى قرارة نفسه كان يعتقد شيئا غريبا .. هو .. أن الشهادة أخطأت جدا إذ لم تمنحه نفسها وأنه نوع من العقول والميول ترفضه الشهادات لغبائها !! « أى نعم » .

كان يومئذ واقفا عند مدخل كوبرى « طلخا » فى مدينة « المنصورة » يقلب الصحيفة التى نشرت أرقام الناجحين ويضحك ، ويضحك ..

نظر إلى هندسة الكوبرى و لم يدر لماذا تذكر صورة نفسه . أغمض عينيه يعتصرهما وزم شفتيه وقلص وجهه كأنما يبتلع شيئا وريقه جاف . وحركة المرور على الكوبرى رعناء . وبنات يتهادين على النيل ينظرن إلى قامته المديدة ووجهه الباهر من بين أهدابهن ثم يلقين نظرة على الصحيفة المطوية فى يده . ورمته إحداهن بنكتة . كانت من بنات البلد سائرة مع أختها بعد أن رأت منظره التعيس والصحيفة والحيرة فلم تزد على أن قالت وقد نظرت إليه : « ورقة طلاق ؟! » كأنها خمنت السر .

عندئذ تحرك ليعبر . لم يكن ناقما على نفسه .. بل كان فى قلبه نقمة حقيقية على الناس : « لو أن أحدا يفهمنى » كأنه يتكلم بلغة وهم يتكلمون بغيرها والإشارات ممنوعة .. شعر أن منطقه مثل المناطق « المنزوعة السلاح » تقع بينه وبين الناس .. خلاء .. خلو تماما .. لكنه يحترم نفسه ويقدرها ..

لماذا ؟! إنه يملأ كل كرسي يجلس عليه إلا كرسى « الفصل » ويفهم روايات شكسبير ما لم تكن مقررة عليه أما إذا قررت فلا .. وقد مثل دور « الملك لير » فى حفلة باللغة الإنجليزية .. اختاروه فيها للون وجهه وعظمة سمته ونظرته الشماء .. وليلتئذ صفقوا له .. كل الناس قالوا : « سيكون له مستقبل .. » .

وها هو ذا يعبر الكوبرى والليل ينزل ووقع حوافر الخيل المشدودة إلى العربات يطقطق مؤذنا بالسرعة ..

ونشر الصحيفة للمرة الخمسين وهو سائر يتسكع بجوار جمالونات الحديد وتمتم : « كلهم يقولون لى سيكون لك مستقبل .. فأين هو ؟! » .. وقلب كفيه ثم قذف بالجريدة فى النهر .. وأدركه فأل سيئ .. كأنما غرق كل شيء فى حياته بغرق الصحيفة وعيناه تتابعانها حتى عبرت منطقة النور .

وعادت إليه مرة أخرى ذكريات العالم « التحتانى » الذى عرفه فى أخوف صورة . وذكرى ليلة مقمرة . بعثر القمر فيها أشعته على المستنقعات والغاب والماء الضحل . التى ألقى عليها نظرة أخيرة قبل تجربة الظلام .

كان يشعر أنه سيرى قريته للمرة الأخيرة وأمه وأباه وكل أفراد أسرته .. ولذلك بدت له مناظر المستنقعات المألوفة فى هذه المنطقة رمزا فى حلم من الأحلام . أصوات غريبة فى تلافيف الغاب الكثيف أو المتناثر والنور عليها يستوى مع الظلمة : « ما فائدة أن يضيء القمر مثل هذا المكان ؟! » .

وفاحت من المطبخ رائحة توابل رسمت خريطة جنوب شرقى آسيا أمام خياله لكنه ما لبث أن عاد بخاطره إلى نور القمر على الماء والمستنقع والأصوات التى تصعد من هناك . وحشية الطبيعة . والطريق النشع أو المرتفع أو المنخفض الذى قطعه إلى قريته .. حالات شتى .. والخوف والكبرياء اللذين مازجا روحه فى الطريق .

لاح له أول ما رأى ذلك القنديل الكبير المتدلى من سلك أمام بهو الدوار . بحيث يجلس أبوه العمدة وحوله « شهاد الزور » .. أصدقاؤه . ووقف برهة ليبتسم . كان ممكنا أن يبتسم وهو سائر لكنه كأنما أراد أن يتلذذ بهذا الخاطر فألغى من أجله كل شيء حتى الحركة .

كان يسمي كثيرا ممن حوله « شهاد الزور » وكان أهل القرية يرددون هذه العبارة لأن كل الذين حول أبيه لم يخالفوه فى الرأى و لم يروا الحق إلا فى اتجاهه الشخصى . وعندئذ .. خفق قلبه قليلا . فالويل له من ألسنتهم. وسينضم إليهم لسان شقيقه الكبير طه النجومى وسينظر إليه أبوه نظرات نارية هى نفسها التى دفعت به إلى الظلام المخيف .. ثم قال فى نفسه :

« دخلت على أبى ليلتئذ وحوله شهود الزور ورأيت الأعين كلها تسأل وكانت الإجابة غاية فى الوضوح : فقد سكت ، وانبرى الشقيق الأكبر الذلق اللسان يؤنب فى تفلسف أمام هذا الجمع : « الدنيا محتاجة لأنواع كثيرة وغريبة .. الدنيا دكان عطار .. فيه السموم والتوابل والأدوية .. الدنيا يا صلاح مثل الفرقة التمثيلية المتنقلة التى تزور القرى .. فيها الملك والمهرج يا صلاح .. الدنيا يا .. » .

وعندئذ نظر إليه « صلاح » نظرة استعلاء . كأنه غير ذلك الذى رمى بجريدة المساء فى النهر . بورقة الطلاق . ووجم شهود الزور حول العمدة الذى كان الشرر يتطاير من عينيه . وأحس صلاح أنه فى دور روائى . وتأهب تماما للتعبير عن حقيقة نفسه . وأخذ سمتا يثير الحفيظة .

وكان ممكنا جدا أن يمر المشهد بسلام ، لولا تدخل عم « محمد الجندى » بكلمة حولت مجرى الحوادث . وكان واقفا وبين يديه صينية بانتظار جمع الفناجيل التى شربت . وكان لهذا الرجل مكانة خاصة عند الأسرة وعند الناس فقد كان يقول الحق الصارخ أو الجارح بلا أدنى مبالاة . وله دالة على الصغير

والكبير على الرغم من لسانه السليط . لكن هذا المجتمع الصغير كان يقبل منه كل شيء بعد أن ثبت له أن هذا الرجل ليس له فى الدنيا غاية فكأنه « ضمير » عجوز يحتملون تأنيبه لأنه الآن فى طريقه إلى الموت ..

وليلتئذ صاح « عم محمد » : « المثل بيقول اللى ما يعرف الصقر يشويه . والله ما فيكم مثله » .

وزاد هذا من هياج الشقيق الكبير لكن الشاب ساعتئذ أحس أن شهادة هذا الرجل شيء لم يدخله تزوير قط . والكلمة البسيطة الصادقة تفعل فى النفس ما لا تفعله أعمق حكمة . لذلك بدأ الشاب يلبس دورا جديدا . دورا هو فى حقيقة الأمر عقيدته الشخصية فى نفسه ، وأنه نوع من العقول والميول ترفضه الشهادات لغبائها . فنظر من أعلى قامته قائلا لمن حوله فى كبرياء عظيمة :

ـــ إننى فى غنى عن الشهادات ..

فرد أخوه فى سخرية فلاح مدرب :

ـــ إذن عزمت على احتراف الزراعة بعون الله ؟!.

فرد الصغير وقد بلع الطعم واستمرأ دوره الحقيقي والتمثيلى كذلك ، دور النفس الكبيرة حين يسند إليها تمثيل الرجل العظيم ، فأشار بذراعه إشارة متعالية وهو يقول بصوت عال :

ـــ وعن أرضكم أيضا .. لعنها الله ..

وكان « عم محمد الجندى » لا يزال واقفا يبتسم ويهز رأسه موافقا . وعلامات سرور تسيل من عينيه الضعيفتين مع دموع تقليدية . بوجه ضامر مجعد شجاع . وعندما كان الأب ينفجر فى ابنه صلاح طاردا له : « اخرج من أرضنا يا خايب .. لعنة الله عليك » .. كان الشقيق الأكبر قد جر « عم محمد » من يده بعنف حتى دخل به حجرة القهوة . وقال له غاضبا :

ـــ لماذا تتدخل فيما ليس لك فيه ؟. (وأخذ من فوق الصينية فنجالا وكسره على البلاط.) لقد غرك أنا نحتملك وأنك ربيتنا (وأخذ فنجالا ثانيا وكسره) ماذا نفعل برجل مخرف مثلك ؟ لو حاسبناك على كل ما تقول لشنقناك .. هل يبلغ الأمر بك أن تشتم جمعا فيه النجومى الكبير . فيه أبى ؟! (وأخذ فنجالا ثالثا وكسره على البلاط) . ما لك لا ترد ؟. الآن أكلت لسانك ومنذ دقائق كان لسانك يأكلك . (فلما لم يرد أخذ الصينية بكل ما عليها ورمى بها على البلاط) ..

وعندئذ تحرك لسان « عم محمد » قائلا :

ـــ الحق .. الحق هو المثل نفسه .. والله ما فيكم مثله ..

تنهد « طه النجومى » ونظر إلى الرجل وخرج .. قائل الحق الوحيد فى هذا البلد ، وعند وصوله إلى البهو الذى وقعت فيه هذه الحادثة كان قد خلا تماما من الناس . كان الأب قد قام داخلا إلى مخدعه وشهود الزور قد انصرفوا ..

وكان القنديل الكبير المدلى من سلك يهتز مع نسمة مساء شجية .

٢

أوى إلى غرفته حتى هجع المسكن ثم خرج وسار من طريق ملفوف لا يراه فيه أحد . وكان القمر قد مال للمغيب وهو فى الثلث الأول من الشهر وترك على المبانى الطينية ظلمة غبشاء .

ونبح الكلب الواقف على الجدار الذى يفتح فيه باب الدار . نبح بترحاب . هذه دار « عم محمد الجندى » فدق صلاح الباب بسماعة حدادى صغيرة . فنهض الرجل وفتح . كان نائما وراء الباب فى دهليز مكشوف على حصير تحت سماء الصيف . على جسمه جلباب مفرد أحس منه حرجا . لكنه أشعل مصباحا صغيرا ورحب بالسيد . فقال له النجومى الصغير :

ـــ أليس فى مجيئى الآن ما يحمل على التعب يا عم محمد ؟

فهتف الرجل بصوت مشروخ من النوم مؤكدا فى قوة أعلى من مستوى سن الخامسة والستين الذى يعيش فيه :

ـــ أبدا يا سى صلاح . باب دارك تفتحه بيديك فى أى وقت ..

ـــ لا .. لا .. ليس هذا هو المهم يا عم محمد .. أقصد أنه لا بد من سبب قوى ..

ـــ فى بلد النجومى الكبير .. والدك .. أسباب كثيرة للمشى فى الظلام ..

ـــ اااه .. لهذه الدرجة ؟!

ـــ ما لا يفعله الناس بالنهار يفعلونه بالليل .. المحروم يحلم يا بنى ..

ـــ عم محمد ؟.. آه .. (وتحسس قلبه أحس فيه بوجع) هل تكره أبى ؟!

رد الرجل بدهاء :

ـــ أى ى ى ؟! وهل هذا سؤال ؟!

فقال « صلاح » بتوسل وجد :

ـــ أنت تعرف أنى أحبك .. لكن .. هل تكره أبى ؟!

ـــ أبوك بنى لنفسه مقبرة . (وسكت طويلا قبل أن يكمل) وكتب على جدرانها نصف القرآن .. فلماذا هو خائف ؟!

همهم الشاب .. وسكت .. وأسند ظهره إلى الحائط الطينى ومد رجليه على الحصير ..

وأخذ « عم محمد » يمسح عينيه براحتى يديه ويكح خفيفا ثم قال بصوت ناعس :

ـــ أشرت عليه يوما أن ينزل ويقيس المقبرة على طوله فشتمنى .. كان جالسا وحده .. وكنت معه وحدى .. ولو كان معه أحد من شهود الزور لخنقنى .. ومشيت من أمام غضبه كما هى عادتى عندما أقول الحق الذى لا يعجب .. وبعد قليل سمعته ينادى بأعلى صوته : « يا جندى الكلب .. يخرب بيت أهلك .. تعال هنا » .. فذهبت فسألنى كأنما ينبهنى لشىء نسيته : « هل تعرف كم فدانا أملك يا سافل ؟ » .. فقلت له : « وهذا هو سبب المشورة التى أشرت بها .. يجب أن نقيس المقابر كما نقيس القفاطين » .. فرمانى بعلبة الدخان والسيجارة التى كانت فى فمه .. ففررت من أمامه..

وساد صمت .. عاد بعده الرجل العجوز يقول بحرج :

ـــ شاى ؟!.. أو أى ..

ـــ قل لى : لماذا لا يطردك أبى ؟!.. لكن .. (وتذكر تولستوى) .. هذا

لا يهم .. هل تستطيع أن تفسر إبقاء أبى عليك ؟!

ـــ لو كنت المداح الوحيد له لاحتفظ بى بنفس الطريقة .. أنا أعمل شيئا لا يعمله غيرى له ..

ـــ جئت لأستشيرك .. أريد أن أترك هذا البلد ..

فتأوه الرجل فجأة .. آهة عالية ممدودة تحمل العجب والخوف . وأخيرا توقع الشىء الصعب الذى يجب أن يحدث . ثم كف وأخذ يفرك عينيه .. وساد صمت .. قال « صلاح » بعده :

ـــ ما رأيك يا عم محمد ؟

فرد بأسى :

ـــ أنت لا تزال صغير السن يا سى صلاح ..

ـــ ربما كان هذا مفيدا لى يا عم محمد .. فأنا اليوم أحب أشياء ليست موجودة فى هذه الأرض ، فإذا خرجت فسيكون خروجى باسم البحث عما أحبه .. لكن .. عندما أحول إلى صورة من أخى فليس ممكنا أن أخرج بعد أن ستصبح هواياته هواياتى .. وأنت تعرف من هو أخى الكبير ..

ـــ فهمت .. قبل ما تتعود عينك على الظلام ..

ـــ ممكن .. وأنا .. أنت تعْرف .. لا صبر لى على الفلاحة .. إنها عمل له قوانينه الشاذة .. إما آكل وإما مأكول .. وإما ظالم وإما مظلوم .. وبغير هذا لا يمكن أن تصلح .. وْأنا أشعر أنها ليست مصدر رزق .. وعندما يموت أبى يا عم محمد فإن أخى طه سيأكلنى وربما أكلنى وأبى حى ..

وساد صمت .. قطعه بعد قليل دردبة عربات لقطار بضاعة يمر بعيدا بين الحقول .. فذكر الشاب برحيله فقال :

ـــ أتريد أن تعرف إلى أين أريد الـ ..

فقاطعه الرجل .. وضع كفه على فمه :

ــ لا .. إن قلت لى فربما منعتك .. لا تحنن قلبى .. لو كنت صغير السن لرحلت معك .. لكن .. قل لى ثانيا .. إلى أين تريد ؟

ــ ألم تمنعنى ؟

ــ لا صبر لى يا سى صلاح .. هل تريد الحق ؟ .. لو أقمت بين أهل هذه القرية شابا طيبا هكذا ما صدقوا أنك طيب وسيقولون إنك ابن أبيك لا شك ، وستجد نفسك مضطرا إلى أعمال قاسية أعرف أنك لا ترضاها ، وبعد ذلك ستصبح قاسيا بحكم العادة .. وناس قريتنا أعرفهم طيبا .. يشربون قهوة أبيك ويبصقون فى فنجاله .. هكذا علمهم هو .. والغريب أنهم تفاهموا فى صمت على أن ينافقهم وينافقوه ، وأنت لم تدخل هذه المدرسة التى أنشأها أبوك .. وتخرج منها أخوك .. (وضحك متذكرا نفسه) أين أذهب من لسانى ؟! لعنه الله ..

* * *

بات الشاب يستمع إلى أصوات غريبة كأنه لم يسمعها من قبل .. فالثيران فى بعض الحظائر لا تكف عن الخوار فى أصوات مهمومة كشكوى متعب . ولم يدر سر عدم مبالاته ولا تعلق قلبه بأحد حوله . إلا برجل رآه الليلة يشعر بالغربة مثله ويبكى على الشباب كوسيلة رحيل ..

وقبل أن ينتشر النور خرج الشاب من بيتهم بحقيبة صغيرة وفى جيبه جنيهات غير قليلة . ولم يلق نطرة خلفه .. فقد كان مشغولا بما أمامه .. مسحورا بشىء غامض . لا يعرف وصفه لكنه يملأ كيانه ويجذبه إليه .. كأنه يرى مدينة ذات أبواب سحرية تنفتح مصاريعها عن شوارع وقباب من البللور .. ينظر إليها فى ذهول .. كل هذا فى خياله ..

حتى إذا ما أفاق إلى أنه وصل « بور سعيد » ألقى على بحيرة المنزلة نظرة أخيرة .. واتجه توا إلى منزل يعرف طالبا فيه ، درس معه فى مدينة المنصورة . وكان يحدثه عن البحر والهرب ، ومغامرات فى الظلام بقوارب خفيفة تجرى على الماء مثل ريش الطيور ..

وكان مشروع الهرب يستلزم الإقامة فى المدينة مدة امتدت إلى عشرة أيام ، كان ممكنا خلالها أن يعدل الشاب عن مشروعه . لكن كل يوم يمر كان يزيده إصرارا فقد أتاحت له الوحدة فحص مجتمعه هناك ، حيث التربة التى تموت فيها بذرة الصراحة لأول وهلة ، وكل شىء فيها تقتله أشعة الشمس .. لا ينبت إلا فى الظلام . وليس « محمد الجندى » إلا شذوذا يؤكد القاعدة كما يقولون . وهو مع ذلك يشقى بصراحته ليس من بيت « النجومى » والده ولكن من نظرات الرثاء التى تلمحها عينه الضعيفة فى عيون كل من حول مخدومه .

وكأنما انتقل أنين الثيران وراءه إلى المدينة ، حيث يقيم الآن « صلاح النجومى » فى فندق صغير . طوال الليل يسمع فى القنال جئير البواخر منغما عميقا .. يسمعه بين اليقظة والنوم كصوت خرافى فى عالم سلطانه الكابوس .

وأخيرا وفى إحدى الليالى جاء صديقه وأخبره أن كل شىء قد أعد ، وأنه سيصل به إلى أحد مراكب النقل المتجهة إلى الشمال ، والتى تقف الآن فى البحيرات المرة ..

وقبل أن يهبط السلم قال صديقه فى دعابة وكأنه يودعه على نافذة القطار : « لنقم بالتجربة الأخيرة . قلد صوت البلبل كما هى عادتك فإنها الإشارة المتفق عليها » .

وعندئذ أخرج « صلاح » من حنجرته تقليدا جيدا لصوت هذا الطائر .. لكنه لاحظ أن حنجرته أصابها بعض الجفاف .. خوف أو حزن ..

وكلما تقدم بهما الزورق فى الليل نحو المركب الواقف فى عرض الماء ، أحس الشاب بثقل المسئولية .. لكنه بين حين وحين كان يجد نفسه مضطرا ، لأن يغرد كالبلبل ليسمع البحار الذى ينتظره ، حتى إذا ما حاذوا الجدار الأسود ورأوا صلابة الفولاذ تحت الليل لم يلبثوا أن رأوا سلما من الحبال ينزل نحوهم وشابا خفيف الحركة خفيف الجسم يهبط مثل شبح بسرعة تلفت النظر . ودنا الزورق منه فأخذ يد الشاب الذى تعلق به ثم ما لبث أن صعد به إلى السطح ، وعاد يأخذ حقيبته بعد أن دفعه لينزوى بين أشياء مكدسة محزومة تفوح منها روائح لا تنتمى لأصل واحد .. وبعد أن عاد البحار النحيف بالحقيبة أخذ الشاب فى يده ليهبط به سلما يؤدى إلى المخازن السفلية ، ومشى « صلاح » يترنح ، ولم يستطع أن يحجز دمعه عندما سمع وهو لا يزال على السطح تقليدا ساذجا لصوت بلبل أرسله من الزورق صديقه كتحية وداع قبل أن يعود هو إلى الشاطئ ..

* * *

العالم السفلى فى هذه السفينة كان قدرا مخيفا .. عالم مكون من الأصوات والروائح فحسب لم ير فيه وجها أبدا . يد فظة تقبض على كفه بطريقة توحى بأن الهمس ممنوع وتقود خطاه فى دهاليز ضيقة تشع حرارة كأنها أفران . دهاليز من الفولاذ تحس العيون أنها ذات سطوة فريدة ..

وعلى مقربة من مؤخرة السفينة أدخل إلى مخزن فيه أكداس لا تحصى .. لكن أهم رائحة فيه هى التوابل .. وعرق الشاب وأحس بالظمأ وانبعثت منه عطسة مفاجئة فضغط البحار على كتفه تلقائيا وغمغم بالضحك .. وسار يجتاز به بين البضائع حتى رأى مرقده الممهد من القش وقصاصات الورق تدرك العيون تحت نور المصباح الصغير الذى يحمله البحار أن ناسا قد افترشوه

من قبل ولا بد أنهم من الهاربين .

و لم يلبث البحار الذى لم يعط الشاب فرصة للكلام أن قال له بسرعة قبل أن ينصرف : « إلزم السكون . سآتى لك بالطعام .. ثم آخذك بين وقت وآخر لكى تقضى حاجتك .. (ثم غمغم غير مقتنع) نوما هنيئا .. » .

و لم تلبث أشياء كثيرة أن أطبقت على هذا الشاب ..

وحدة غير محدودة .. وحر .. وعرق .. وظلام .. والأنكى من هذا كله .. الخوف ..

إن خوفه لم يبلغ قط هذا المستوى .. فهو الآن لا يعلم شيئا عن شىء يقع منه على بعد شبر واحد .. خوف لا يدع له فرصة أن يغادر مرقده القش وهو ذلك الشاب الذى كان يغرد مثل البلبل فى البحيرات .. عبر المنزلة عندما كانت تأخذه الهموم وهو فى الطريق إلى هنا ، وكذلك عبر البحيرات المرة ..

وساءل نفسه بإخلاص : « هل هو محق فيما أقدم عليه ؟ » ..

و لم يلبث شيطانه أن رماه بالتردد فعاد إليه إحساسه المألوف بأنه شاب لم تعرف الظروف ولا الناس قيمته الحقيقية ، وأنه هو شخصيا ـــ بإقدامه على هذا ـــ يشارك فى البحث عن نفسه .. ولو أن له أحدا ممن يهتمون بالبحث مع أبنائهم عن رغبتهم الحقيقية ما حدث هذا . والده مشغول بالمحافظة على التاج القروى المصنوع من (الطين) .. وأخوه ولى العهد فى قرية الحفاة والمطحونين . ذلك الذى أكد شخصيته عندما أحرق المستشفى المتنقل الذى نصبته الحكومة على ربوة قريبة من قريته ، وكان مصنوعا من الحصير . ويعالج من البلهارسيا والإنكلستوما ، و لم يستطع أحد أن يذكر اسم من أحرقه . وعاد الفلاحون إلى الحقول و لم يتعطل العمل .. ولكنه عندما رقد فى مستشفى البندر فى عملية بواسير كان الفلاحون يجلسون على أبواب المستشفى فوجا

بانتظار خروج فوج ويدعون له بالسلامة .. وربما قطعوا الطريق على طوله مشيا على الأقدام ..

وتذكر الشاب جب النبى يوسف ، وتذكر كل ليلة جميلة فى عمره الغض .. وحتى الحب كان سعيدا فيه .. ويشعر أن قلبه يسع الدنيا . فلماذا عجزت الدنيا عن أن تسعه ؟!

و لم تلبث عيناه أن ألفتا الظلام فخلع بدلته ووضعها إلى جانبه وأخذ من الحقيبة بيجاما وارتداها . وأحس أن القش والورق يصنعان حرارة لا تطاق فقام يتحسس الأكداس المنتشرة حوله لعله يجد فى إحداها ما يستطيع النوم عليه . ولما لم يعثر على مطلوبه أراد أن يعود إلى حيث كان . و لم يكن يدرى أن ضلال الطريق هنا أمر مألوف .. فعجز عن العودة إلى المكان الأول . وأخذ يدور فأوغل فى السفينة . وارتفعت الحرارة ونضج العرق . وكانت أصوات مثل أصوات الثيران المتعبة فى حظائر أبيه تأتى إليه فى هذا الجب . كان يشعر أن قلبه شيء له أبهاء وقباب تتردد فيها أصوات السفن المليئة بالشجن . وأخيرا قرر أن ينام على إحدى الحزم فتسلق إحداها فارتطم رأسه بالسقف وانبعثت من عينه شرارة كأنها أضاءت العنبر ، وشعر بحاجة إلى البكاء لكنه عاد فذكر صوت البلبل .. ذلك الذى يجيد تقليده ، وإنه منذ .. منذ متى ؟! كأنما مر على ذلك قرن .. منذ قرن من الزمن كان يعبر البحيرة مع صديقه البورسعيدى . لماذا لم ينصحه ؟! إن شعوره بالغربة بين أهله هو الذى حمله على هذا ومع ذلك فإنه سيذهب إلى بلاد مضيئة ، سيذهب إلى أوربا . وهناك .. ماذا ينتظره ؟!. هناك تتاح للمواهب أن تتفتح ، وعندما يعود سيحقق أحلامه كلها .. لكن .. ما هذه الروائح الفظيعة ؟ الجو مكتوم . وأحس بحاجة مستمرة إلى العطاس والسعال فقد ساقه حظه إلى شحنة من التوابل . وها هو ذا يكاد يختنق

.. إنه فى عمله هذا كمن يسابق ظله .. سيظل يجرى حتى يسقط . ما فائدة البحث عن النفس إذا كنا لا نجد النفس إلا فى تجربة الموت .. كان يوسف فى جب ولكنه كان رطبا . أما هنا فجحيم . وشيء ثقيل مثل « الهون » من النحاس ينحط على نافوخه . وجفاف ريق . ووسوس لنفسه بصوت ظن أذنه تسمعه : لماذا لم يعد هذا البحار الملعون بإناء من الماء ..

كان البحار يشرب هناك على سطح السفينة ويأكل شواء هو وبعض البحارة ، ويتنسمون هواء الليل ، ويلقون بأنظارهم إلى قافلة البواخر الواقفة أمامهم بالقناال بانتظار العبور وكل قد أشعلت أنوارها ورفعت علمها ..

و لم يدر الشاب أن البحار قد نسى المتعبين عندما سكر ورقص وغنى ، حتى إذا ما بدت خيوط النهار استفاق « صلاح » ورأى بصيصا من النور كشف له أرجاء المكان . وعندئذ أخذ يبحث عن مرقده . فرآه على بعد لا يزيد عن خمسة أمتار ، لكن حزمة كبيرة كانت تقف كالجبل بينهما فجعلته يدور فى متاهة .

وحمل إليه البحار ضحا اليوم شيئا من الطعام ودخل . كان عدم المبالاة فى عينيه . وبعد أن وضع الطعام أشار إليه بأن يتبعه ليذهب إلى دورة المياه .. وأحس بالذل . ولو لم يكن حديث السن لسافر بالطريق الرسمى . لكنه سار يترنح . بدا متعبا منهكا . ثم .. عاد به البحار إلى مخبئه وتركه وانصرف وجلس الشاب يلوك الطعام و لم يتصور ـــ لفرط ما هو فيه من وحشة ـــ أن جدارا من الحديد أقل من سمك أى حائط هو الذى يفصل بينه وبين معالم وطنه ، وزاد من عمق إحساسه أن البحار كان يتكلم معه بالإنجليزية ..

و لم يكن له من عمل إلا أن يستلقى من جديد فى ظل شحنة من الشحن وأن يسمع صدى النداءات ونفير البواخر . ولما اشتدت حرارة الشمس

(للزمن بقية)

وسخن ماء البحيرات أحس الشاب أنه فى أتون . وبدأ الزمن لا حدود له . فقد كانت الساعة تمشى ببطء يفتت العصب .

وعرف الشاب معنى « الحرية » وجعل يكتب حروفها بهزات رأسه المثقل بالحزن والصداع والأفكار وهو يهمس باسمها . واستعاد ذكريات معارك عرفها فى سبيلها فى التاريخ وغير التاريخ . وتذكر وهو فى هذه الحالة من الإنهاك أن المعارك ليس من الضرورى أن تكون بالمعنى الواسع فقد رأى « محمد الجندى » يخوض معركة فى سبيلها مع أخيه « طه » ذات مساء ، وكان « صلاح » لا يزال تلميذا بالمدرسة الإبتدائية .

كان يومئذ قد وقع احتكاك بينه وبين ناظر الزراعة ، إذ طلب منه « محمد الجندى » حملا من حطب القطن فسوف وسوف حتى نفد الحطب . كان الناظر واقفا على مقربة من باب حجرة القهوة وكان « الجندى » يكلمه بصوت مرتفع ويداه مشتبكتان خلف ظهره وهو منحن إلى الأمام وفى لهجته إتهام واحتقار :

ــ حطب يا سيدى ؟ الله الغنى .. أنا حطب وطلبت حطب من حطب . أى والله . قلت لك الحق ورزق على الله ..

فالتفت إليه الناظر مأخوذا :

ــ أنا أعرف لسانك يا جندى ولكننى لا أفهم كلامك .

فرد عليه الجندى وهو على نفس الصورة وبصوت أعلى :

ــ أنا حطب يعنى كما ترى عجوز ، وطلبت حطب .. مفهوم .. من حطب يعنى من حضرتك .. وإنت تعرف السبب فى أنك ستكون وقود جهنم يوم القيامة ..

وكان ينطق جهنم بجيم عليها ضمة فتبدو فظيعة جدا فى أذن السامع ، وكأن

لهيبها يتوهج ..

وهنا دخل « طه » فهرع إليه الناظر ولما أراد أن يعرف ما جرى أعاد عليه « الجندى » نص ما قال . فسأله « طه » فى تأنيب شديد :

ــ ألا تخاف من أحد يا طويل اللسان ؟

فهز رأسه ، وجز « طه » على أسنانه ثم قال :

ــ أنت لا تعرف الحياء ولا الخوف ..

فرد الرجل بعدم اهتمام :

ــ الخوف ؟!. لا ..

ــ وتقول : لا ؟ لماذا ؟

فمد الرجل كفيه معا إلى الأمام كتلميذ سيضرب عليهما ، وقال فى هدوء من يحسب حسبة تافهة :

ــ هل ترى فى يدى شيئا يطمع فيه أحد أو شيئا أخاف عليه من أحد .. وإذا كان الحصول على الحطب يحتاج إلى حيلة كأنه قطن فالبحث عن القطن أحسن . لكننى بعت الجمل بما حمل ..

وانصرف .. ووقف الرجلان ينظر كل إلى الآخر ، أما الغلام صلاح النجومى فقد حمل إلى « عم محمد الجندى » طلبه من مخازن حطبهم فى العزبة بأمر من أبيه .

* * *

كل شىء يمر بنا يشارك فى بنائنا .. وكأن هذه الحوادث صنعت قلب صلاح النجومى ..

وهو إذا فكر اليوم فى (الحرية) فإنه لن ينسى الليالى المظلمة فى قاع السفينة . ليالى كان يكتب اسمها على كفه اليسرى بسبابته فى الظلام مائة مرة

.. هناك حيث أهمل ليلة أخرى وحيث كان البحار نفسه يشرب ويأكل ويرقص ويغنى فى الهواء الطلق هو وبعض زملائه . وليس من دليل على الحياة حول الشاب فى القاع إلا حركات لعلها الفيران تجول فى المخازن .

ولم يدر صلاح لماذا تحسس جيبه فى الظلام .. كانت بدلته إلى جواره فلم يجد فيها نقوده .. وعند ذلك كاد يجن ، وأحس أنه وقع أسيرا فى يد عصابة من اللصوص ، لكنه لم يلبث أن شعر أنه لا يزال على أرض وطنه ولعله من حسن حظه أن حدث له هذا قبل أن تتحرك السفينة . ثم هدأ قليلا ورجح أن نقوده ربما سقطت منه .. وعليه إذن أن ينتظر النهار .. لكن عاد ففكر : « إن هذا البحار يلقى فى نفسه الخوف باستمرار وهو يعلم أن نفسه الآن مزرعة خصبة للخوف . كما يعلم صلاح أنه من المحال أن يقوم فرد واحد بمثل هذا العمل . وقد يكون مستبعدا أن يكون القبطان جاهلا لما حدث » ..

ولما انتشر النور بحث عن نقوده فلم يجدها ، وغاب البحار عن ميعاد اليوم السابق فأدرك الشاب أن هذه الضيافة تسوء يوما بعد يوم . لكنه انتظر . وما لبث أن سمع وقع أقدامه . دخل من باب العنبر يغنى ويصفر . فى اللحظة التى كان الضيق فيها قد بلغ منتهاه فى قلب الشاب .

وحياة بكلمة « هاللو » بمودة متكلفة ، ووضع شيئا من طعام وأمسك بيد الشاب يقوده نحو دورة المياه كالمعتاد .

وفى أثناء الرجوع إلى العنبر وقف الشاب الملىء الطويل الصغير السن أمام هذا البحار المدرب وقفة من يدافع عن بقائه . وسأله عن نقوده .. فمط الآخر فمه كله فى حركة بذيئة وأشار إليه ألا يتكلم حتى لا يسمعه أحد .. وأخذ يدفعه نحو العنبر دفعا . فامتنع الشاب وتثبت بالوقوف ونشبت بينهما معركة قصيرة ما لبث الشاب أن أدرك أنه من الخير له أن ينهيها حتى يتدبر الأمر ، ثم

جلس فى مخبئه مكتئبا حزينا يحمل رأسه على راحتيه . وتمنى أن لو كان معه ما يشعل به النار فى هذه البضائع ليحرق كل شىء فى السفينة . وذكر وجه أبيه وشاربه الطويل الفضى اللون . وأبهة التاج القروى .. والكلمة المسموعة .. ثم .. موقفه الآن . موقفه كلما فكر فيه زاد اكتئابا واستشعارا للخطر . فماذا لو كان هذا البحار قد استعان ببعض زملائه ونزلوا إليه وألحقوا به أذى ثم رموا به فى الماء . إنه الوجه الوحيد الذى رآه يحمل طابع اللصوصية . وهو يعلم أن هذه السفينة يونانية لكن وجه هذا البحار يدل على أنه من سكان المستعمرات .

وأخذ النهار يتقدم . ومرت فترة الغداء ولم يحضر إليه أحد . وفقد الشهية .. وكلما سمع جئير أحد المراكب غاص قلبه فى صدره المفعم . إنه يود ألا تسير به السفينة . يريد أن ينزل يريد العودة . وليس عارا أن يفشل مشروع مهما تكلف من جهد أو نفقة . لأنه فى سبيل أغلى شىء ، ولم يدر الشاب كيف خاف من دخول الليل ، فعندما أشارت الساعة إلى الخامسة مساء كان فى كامل ملابسه . ولم تكن ذقنه قد نمت كثيرا . وسار فى الطريق المفتوح .. فى العنبر الخالى . وكانت أصوات البحارة تتناهى إليه بين حين وحين .. لغات مختلفة . وغمغمات لا يفهمها . لكنه ما لبث أن وصل إلى سلم فى وسط العنبر .. عرف أنه يؤدى إلى السطح فأخذ يصعد لا متلصصا بل مصمما كأنه يعرف هدفه . وقبل أن يحاذى رأسه أرض السطح سمع صوتا يتكلم الإنجليزية . وكان الصوت مليئا متريثا يدل على أن صاحبه يتمتع بهدوء .. وربما وقار .. ولم يلبث أن سمع كلمة « كابتن » تتكرر .. وأوامر ومشاورات . فارتفع حتى رأى أقدامهم ، أحذيتهم من النظيف والقذر . ورأى حذاء يلمع وحلة بيضاء وعددا من البحارة . وحديث يدل على أن بين

الموجودين مسئولا .

وانطلق الشاب كالطائر حين يفتح بابا قفصه نحو أعلى .

وسمع الواقفون وقع أقدامه فانتبهوا فى انزعاج وتعجب . وعرف الشاب وجه « القبطان . لا يمكن أن يتوه . وجه إغريقى كأنه وجه تمثال فى معبد يونانى قديم ، ونظارة فى شفافية فقاقيع الصابون ورقتها ، وكل شىء يلبسه فى مثل هذه النظافة .. والتفت القبطان منتبها إلى كلمة ألقى بها الشاب بسرعة :

ـــ سيدى .. إننى فى حمايتك ..

وضع الرجل يده على ذقنه وقاس بنظرة طول الشاب الوسيم الواقف أمامه عملاقا والذى ألقى عليه بالإنجليزية هذه العبارات والتف البحارة حوله بحركة سريعة من باب الاحتياط ، ولكن القبطان صاحب الشعر الفضى واليد السمينة أشار إلى الشاب فتقدم منه ، ووضع يده على كتفه فأحس أنه يرتعد .. طمأنه : « لا تخف .. لكن من أين جئت ؟! » ..

ـــ أنا أعلم أنك لا تعلم ، ولذلك أطلب حمايتك ..

وكان الشاب قد تعلم فى قريته من أبيه وأخيه أنهم يخاطبون فى الريف من باب الاحتياط رئيس العصابة على أنه رجل شريف لا يعلم شيئا عما جرى وأن توجيه المشكلة إليه من باب الاستنجاد بأشرف رجل .. لأنه من غير المرجح أن القبطان بمعزل عما يجرى .

وقص عليه مجمل الواقعة . فلما سأله عما إذا كان يستطيع معرفة وجه البحار الذى حكى عنه . قال بهدوء يوحى بالصدق :

ـــ كنت فى حالة أعجز فيها حتى عن معرفة وجه أبى ...

ـــ وكيف عرفتنى إذن ؟

ـــ من صوتك أولا .. فهو صوت رئيس ..

فضحك الرجل فى سعادة طفل . وأمر له بشراب بارد وسلك معه مسلك الآباء .. وأخيرا سأله وهو يقهقه :

ــ تريد الآن أن تعود إلى الشاطئ وعدلت إذن عن المغامرة أيها الشجاع ؟

فأومأ الشاب وفى عينيه دموع .. قال القبطان :

ــ إذن فلتعد ..

فتحرك قارب نحو الشاطئ تحت عين القبطان ..

٣

كان عليه بعد هذه الحوادث أن يواجه أقسى رجلين عرفهما ولو أنهما أبوه وأخوه ..

وعن طريق بحيرة المنزلة ثانيا عاد إلى القرية .. وكان فى المركب البخارى الذى يحمله رجال ونساء من كل سن . يختلسون النظر إليه ويدارون إعجابا . فأخذ يوازن بين ما كان وما هو الآن .

لم يجد على وجوه الناس فى القرية ذلك الأثر الذى كان فى وهمه . ظن أن العيون لغيابه لن تكف عن البكاء . فلما قابلته أمه أول الناس بعتاب وانصراف خاب فأله ، خصوصا عندما أفهمته أن الذى ارتكبه عار بالنسبة لهم جميعا .

فى حديثها مبالغة مقصودة وإن كانت تحس بالفرق بين الأخوين اللذين أنجبتهما هى . وتأسى للمستقبل المفلس الذى ينتظر ابنها « صلاح » — على ما تظن — إذا ما ورث نصيبه من الأرض . فلم تكن فيه طبيعة الفلاح الذى يرى أن الانتظار الطويل شيء طبيعى حتى تحول الأرض أجنة البذور إلى ثمرات ربما لا تجنى إلا بعد حرب مع الآفات بل فيه طبيعة الفنان الذى يؤدى دوره على المسرح وهو يتحرك ويريد أن يرى أثره بسرعة . ويرى أن الحركة أشهر دلائل الحياة . ويعجب لمجموعة من الناس لا يكادون يفارقون مجلس أبيه العمدة .. كالتماثيل يهزون رءوسهم موافقين طول النهار دون أن تتعب أعضاؤهم ، حتى إذا ما عادوا إلى زوجاتهم انقلبوا ناقدين ناقمين .

وعلى هذه المجموعة دخل « صلاح » بعد عودته من الهرب ، وتلقفته عينا

أبيه بنظرة نارية .. وها هى ذى .. هذه النظرة بعينها تنبعث من صورته الكبيرة التى علقها فى المكتبة ، وتبعث فى قلب الناظر إليها من الخنوع شيئا مبهم السبب .. فيها روحانية شريرة ـ إن صح هذا التعبير ـ أشبه ما تكون بعيون السحرة . وعندما تلقفته نظرة أبيه دخل فى نطاقها مستسلما . كان يشعر فى هذه اللحظة أن هذه القوة ملكه لأنها قوة أبيه وإن كان يكرهها ويخافها . اعتزاز مخلوط بالتنمر . دفع بخطوات الابن إلى الأمام إلى حيث سلم على أبيه وقبل يده ، وكان الأب يزمجر ويقول فى لهجة سريعة مريرة : « حج مبرور .. حج مبرور .. اقعد يا حاج إشرب القهوة » .

وفى اللحظة التى كان الابن يتخذ فيها مجلسه على مقربة من أبيه ارتفعت عقيرة الأب مناديا بأعلى صوته وبنغمة لها معناها :

ـ « يا جندى .. سكر زيادة للحاج .. بسرعة .. » .

وأخرج علبة الدخان وأخذ يتأنق فى لف سيجارة والارتياح الغامض باد على يديه ثم ملامحه بعد ذلك . فقد عاد ابنه على كل حال ..

وكان الجالسون يحملقون فى صمت نحو الشاب ويتنحنحون بين وهلة وأخرى . لا يجرؤ أحد أن يقول شيئا خيفة أن يكون غير موافق رأى العمدة الذى لم يجهر به بعد . و لم يلبث أن أهل محمد الجندى يحمل صينية صغيرة عليها فنجال وحيد .

ووقف يتصفح الوجوه ليرى أين الحاج بين الحاضرين .. وما لبث أن لمح الابن فخفق قلبه وأدرك أنه هو المقصود بما حدث .

ونظر العمدة فى خبث وعلى شفته ابتسامة لا تدرك ليرى لمن سيقدم الفنجال . و لم يتكلم أحد فما استغرب الجندى ووقف وسط البهو ينظر بعينيه المتوفتين فى كل اتجاه بين الصمت المعلق حتى إذا ما وقعت عيناه على

« صلاح » قال بإهمال من لا يبالى : « حمدا لله على السلامة يا سى صلاح » .

ثم .. لم يتقدم إليه و لم يقدم له القهوة بل دار على عقبيه عائدا إلى حيث كان . فأخذت الدهشة الحاضرين وناداه العمدة من جديد فعاد إليه متكلفا غاية الطاعة ، فقال له العمدة بحنق مفتعل :

ـــ لماذا عدت بالقهوة . هل أنت مجنون ؟!

ـــ لا يا سيدى .. ولكنك طلبت قهوة للحاج .. وليس بينكم حاج واحد ولا ضيف جديد ..

وعندئذ أشار إليه العمدة أن يتقدم نحوه وأن يتقدم .. حتى إذا ما صار قريبا منه جدا وصار خده فى متناول كفه وعينه محملقة فيه مد العمدة يده .. وأخذ فنجال القهوة .. فضحك الحاضرون وقهقه العمدة محاذرا أن تراق القهوة على قفطانه والجندى واقف يغلى وصلاح يكاد يبكى .

لكنه رأى أن واحدة بواحدة وأن أصغر احتجاج (لدى هذا البلاط البدائى) وثيقة حرية لا مثال لها ، وقد احتج فعلا بما عمل .. بالهرب : « ألم يحرق أخى المستشفى الحكومى ويسوق الفلاحين إلى الحقول ؟ وقد قال لهم : إن البول الدموى علامة للصحة فهو يدل على كثرة الدم ؟! وعندما رقد يستأصل بواسيره هرعوا إليه أفواجا . (وتأوه صلاح) . وبلغ من الحب الطاغى له أن ادعى كل رجل زاره أن البواسير كثيرة الانتشار كأنها خلقة فى كل رجل .. لكن ما دام السيد « طه » يرى أن استئصالها ضرورة فلنستغن عنها جميعا » ..

و لم يلبث أن دخل « طه » يتبختر . كان ذا وجه أسمر ومزاج صفراوى وزاويتا عينيه من ناحية الأنف ذواتا بياض محمر . وجه مدمن يحمل علامات الصحة وإن بدا عليه الإرهاق . بشرته مطابقة فى اللون لبشرة أبية أما بشرة

صلاح فمطابقة لبشرة أمه .

ولما كاد « طه » أن يعبر دون أن يلمح حضور أخيه هتف به أبوه : « لماذا لم تسلم على الحاج ؟ » فتوقف الأخ الأكبر ونظر إلى صلاح ومضى . دخل إلى إحدى الحجرات الخاصة فى الدوار . وأشار العمدة إلى ابنه أن يلحق بأخيه فنهض مهزوما . يجر وراءه ذكريات مخزن البضاعة فى السفينة والليالى المظلمة وعسف البحار . وكأنما كان هذا (مسكنا) جعل نفسه مستعدة لأن تسمع من أخيه أى شىء .

وصل إلى باب الحجرة والجندى داخل بكوب من الشاى . فانتظر « صلاح » حتى يخرج ثم دخل . وجلس الأخ الأصغر ساكتا ينظر إلى شقيقه وكأنه يهيب به أن يقول شيئا . أخذ « طه » يرشف الشاى بصوت مرتفع لم يخل من المبالغة والإثارة وبين كل رشفة ورشفة يرمى شقيقه بنظرة شماتة . وجلس صلاح يفرك كفيه ووجهه محتقن : « فى المركب وجدت قبطانا احتميت به .. وهنا .. لا قبطان .. » استسلم .. هيأ نفسه لأن يسمع أى شىء .. لم يكن قد أفاق مما حدث كأنه لا يزال حتى الآن فى قاع السفينة . وأحس .. كأنما (شخصية) كل فرد قد نثرت جزافا بحكم الفطرة فوقع كل جزء منها أسيرا فى يد فرد آخر بتحكم الرعاية أو الحاجة أو الرياسة . ولكى يستكمل الفرد (شخصيته) عليه أن يسترد أجزاءها المنثورة .. وفى سبيل هذه التجربة نلقى عذابا وربما فقدنا الأجزاء التى نملكها فى سبيل استرداد ما فى يد غيرنا منها ..

ولم ير « صلاح » فرقا كبيرا بين شقيقه وبين البحار . كل منهما ينازله ليأخذ منه شيئا .. وهذا شقيقه يريد منه أن يكون صورة منه . وكذلك يريد الأب . مع أن صلاح عاش فى المنصورة عيشة فذة طيلة سنوات تعليمه . كان

يبنى عالما من البللور . مما يقرأ ويكتب ويحب . ويسافر إلى القاهرة فى ليالى الجمع ليرى ما لا يرى فى المدن الصغيرة .. وبنات مدارس بشعور صفراء ينشدن أشعارهن فى الخلوات .. له .. أشعار تنطق بالحب والأمل بطريقة تناغى الطير .. كلامها فى ذاته ليس مفهوما . لكن حين تقرؤه صاحبته وتدارى عيوبه بموسيقى ضحكة يصبح كل شيء (موزونا) . ويخيل إليهما أنه لا شيء فى الدنيا أعظم من هذا ..

أما هذه الرشفات وهذه النظرات التى تنبعث من أخيه فشيء مخيف .. روائح عالم جديد لا علاقة لصلاح به . يريد الأخ الآخر أن يجره إليه من رجله . لذلك هو خائف صامت . عالم ليس فيه شيء يتنفس بطريقة النبات .. هناك فى الحقول حيث يتم تنفس النبات بلا صوت تتم كل الأعمال التى يريدها « طه النجومى » . فإذا ارتفع غناء مجموعة من الناس فى حقل من الحقول كان معنى ذلك أنه غائب .

أما عالمه عن الحب فهو عالم (الرغبة) فحسب . وعالمه عن الناس فهو (عالم الأسماك) . وكان أول تلميذ فى المنطقة أعطى كل كتبه لبائع خيزران وأخذ نظير الكتب خيزرانة مشى يضرب بها الهواء يوم قرر مقاطعة المدارس . ونقل الخبر إلى أبيه فقهقه وقال : « إنه لم يعمل أكثر من أنه استعجل . فهذا ما كنت أريده » .

وهذه رشفاته تفتت أعصاب « صلاح » .. ولما انتهى وضع الكوب ومصمص بشفتيه :

— قل لى يا بيه ؟ ماذا قررت بعد أن رجعت من (البعثة) ؟!

فرد بانكسار ليس من طبعه :

— هو ما قرره أبى .. و .. أنت .

فانتفش كأنه ديك وأشار بيده السمراء البضة :

ــ اسمع يا بنى .. دعك من فلسفة محمد الجندى فهو رجل معتوه يحميه ضعفه ، وتربيته لنا . ودعك من كل ما تسمع .. اسمعنى أنا لتكسب .. كل ما أسمعه لا أصدقه لأن الناس هنا منافقون . ولذلك فأنا أتصرف على أساس تفكيرى الشخصى .. الفلاحة يا بنى يعنى الفلاحة .. الأرض لا تنبت حبة الفول إلا إذا شرختها .. حبة الفول التى لا يستطيع كسرها بأسنانه إلا الحمار . الأرض قاسية .. وبطنها قاس ، وظهرها قاس : يعنى العمل فيها قاس .. فإذا كنت تريد أن تكون فلاحا فلتكن أخلاقك مثل الأرض .. فاهم يا أفندى ؟ انظر إلى الأرض بعد حصد القمح والبرسيم وبشاعة وجهها من الشقوق ، وبطنها لا يرقد فيه إلا الموتى .. ولولا الماء عليها لكانت وحشا .. انظر إلى الجبال ثم أنت تعرف عدد القتلى الذين سقطوا من أجل الماء .. فإما أن تكون وحشا وإما أن تأكلك الأرض .. وعلى كل حال فكر .. هل تريد أن تكون فلاحا بعد ما سمعت ؟!

فرك الشاب يديه وجعل ينظر إلى بياضهما . بينما عيناه تأخذان من جانب لون بشرة أخيه . و لم يكن يشغل فكره إلا طريقة معاملته للناس .. لكنه فى هذه المرحلة لم يكن يحس بأكثر من أنه ظلم وأن عليه أن يفتش عن مكان يجد فيه شخصيته ومستقبله .. ثم .. وهو المهم . المصباح الذى سيحمله ويمشى به .. ليرى مواقع أقدامه . ليس لنفسه فقط ولكن لناس سيمشون معه قليل أو كثير .. و لم يلبث الشاب أن قال لأخيه بلغة المهزوم وكأنه يخاطب شخصا بعيدا :

ــ كان جنود نابليون بعد أن ..

صرخ « طه » فى ملل :

ــ أووه .. ما لنا ومال نابليون والزفت ؟!. أنا أكلمك عن وحشية الأرض فتكلمنى أنت عن نابليون باشا ؟!.

رجاه بعينيه وإشارة رقيقة من يده :

ـــ الوحشية تذكر بالوحشية .. أرجوك يا أخى .. كان هو وجنوده أثناء تقهقرهم عن روسيا على الجليد يذبحون الخيل ليشربوا دماءها الدافئة حتى لا يتجمدوا من البرودة .. مع أن هذه الخيل كانت سلاحا ووسيلة عودة .. لكن .. الوحشية تدعو إلى الوحشية .. أنا معك ..

فابتسم فى انتصار :

ـــ عال .. فهمت الآن أنك ستكون فلاحا .. عال .. أرضنا واسعة وتحتاج إلى كثير من الرجال والعيال ..

* * *

وسهر صلاح يحدث عم محمد الجندى فى داره بعد ذلك بأيام عما جرى فى قاع السفينة ، وأنه لو لم يصدم منذ الخطوة الأولى ما عاد إلى هنا ..

وكان الرجل صامتا لا يتكلم .. وأخيرا قال للشاب :

ـــ لم يستجب الله دعائى لك .. ولو استجاب ما عدت إلى هنا .

ـــ هل تكره أن تكون معى يا عم محمد ؟

ـــ أنا الذى أكره أن تكون هنا .. سمعت شقيقك وهو يسقيك مبادئه ..

ـــ هل سمعت ؟

ـــ مصادفة .. كان يقول لك إن الأرض قاسية لأنها تنبت الفول .. وصدقت .. هل هى قاسية لأنها تحول حبوبا مثل الحجارة إلى عيدان خضراء ؟

ـــ هذا لا يهم .. فلكل طبعه .. لكن الذى أعجب له هو إحساسى أننى غير أبى وأخى وأننى سأحارب دنيا بأكملها .. وحتى يئون الأوان الذى يفهم فيه الفلاحون أنى أحبهم أكثر من الأرض يكون كل شىء بينى وبينهم فسد ..

هذا مؤكد ..

واستقر رأى الأب وابنه الكبير على أن يتولى « صلاح » عملا بكرا .. عملا يتيح لهم أن يعرفوا مدى مجهوده وقدرته على تشغيل الأيدى البشرية . فأسند إليه إدارة المزرعة الشمالية التى تحدها أشجار الجزورينا من الشرق والغرب . أما من ناحية الشمال فقد استقر رأى الأسرة على شق مصرف كبير شديد العمق غير طويل المدى . ومهمته رسم حد أساسى ثابت للمزرعة وامتصاص الملوحة التى تنتشر عادة فى هذه البقعة كلما اتجهنا نحو الشمال .

ووقف لنظارة هذا العمل فى الأيام الثلاثة الأولى الابن الكبير حتى أمكن معرفة مستوى الإنتاج ، ولم يكن « طه » محتاجا إلى جهد كبير لكى يأخذ من القوى البشرية أقوى طاقة تبلغ مع غروب الشمس حد الخور ، أو شبه الموت . وبعد ذلك وكل إلى الابن الأصغر نظارة العمل . وكانوا كلهم فلاحين من مزارع أبيه أو من القرى المجاورة .

ورآهم يحفرون . الرجال يغنون وفى عيونهم حزن وعلى أجسامهم خرق واليد التى تحرك « الكريك » أو الفأس فى جفاف الخشب الذى تمسكه وهم مع ذلك يغنون .. فلماذا يغنون ؟! وكذلك فعل النساء . وبدت وحشية الأرض — كما قال أخوه — والعذاب الذى يقاسيه الإنسان فى ترويضها .

كان على رأسه مظلة فأقفلها ليرى تحت أى جو يعملون .. وأحس .. وعرف .. وكانت روائح الخبز المخلوط بالحلبة تفوح من المكان . لكنه كان مشغولا بأمر واحد هو : كيف أن هؤلاء الناس يستطيعون الغناء وإذا استطاعوه فكيف يستمرئونه ؟.. ثم .. تساءل عن شيء آخر رآه أكثر غرابة . هو هذه الحفاوة التى تبدو وكأنها حقيقية إذا ما رأوا أخاه الأكبر . كيف تستطيع النفوس كمجموعة أن تحمل كل هذا الباطل ؟!

كان يفكر فى هذا صامتا والشمس تصهر رأسه . وأحس بالظمأ فمال على القلة الكبيرة الحمراء وشرب . إنه يريد أن يعرف . وهم أن يمسك الفأس معهم لكنه خشى أن ينهار العمل . وحاول أن يتصور ما يكنه ضمير كل منهم . فشعر برثاء للذين لا يفكرون فيما هم فيه لأن « شخصية » كل منهم نهشتها طريقة معيشته .. الريش يمنح الطيور شخصية .. وهؤلاء أناس لا ريش لهم يستطيعون أن يطيروا به ولا حتى يمشون به على الأرض .. بل هم محتاجون إلى الزغب .

أما الذين يفكرون فيما هم فيه فعذابهم مضاعف . تفكير الأسير .. وقد أحس « صلاح » بالأسر قبلا وعرف معنى العجز وظل ليلتين يحلم بالحرية ويكتب فى الظلام المطبق اسمها بسبابته على كفه اليسرى يناجيها بالكتابة . وحز فى قلبه أنه رأى سماء وطنه وشمسها وخضرة أرضها ثم أحس أنه أسير على ظهر السفينة أيام هذا الحادث ، ونظر إليهم : « هكذا هم .. أقفاص أرضية وحبال من الليف .. وسجن بدائى » .

وأحس حرارة الشمس .. ثم صداعا .. فصاح بالفلاحين بأعلى صوته : « ألا تريدون فترة من الراحة ؟ » .

لم يكن هذا مألوفا فتجمد كل فى مكانه كأنما سحرت الصورة ، لم ينظروا إليه على أنه نصف نبى أو شاب رحيم بل على أنه سليل آل النجومى لكنه لم يكتمل بعد .. لم تنبت له أظافر .. جرو ذئب ممكن أن يلعب به .. لا بأس ..

وعندئذ جلس كل فى مكانه على الأرض التى تحفر .. لعب الصغار وغنت البنات ودخن الرجال . وهم ينظرون إلى هذه الرغبة التى أبداها الشاب نظرة سارق المحاصيل من أرضهم .. وعندما هتف بهم .. : « هيا .. عودوا إلى العمل » قاموا متكاسلين .. وفى الغداء أخذوا فترة أطول من المعتاد .. ولم

يأكل « صلاح » من طعامه أمامهم .. كأنما نخشى أن يخدش البؤس .. وساعتئذ شعر أن الدفاع عن هؤلاء خير ما يتقرب به إلى الله .

وانتبه فجأة إلى أن الوقت يمر .. وأخيرا عادوا إلى العمل مثل النمل المجهد .

ومرت على ذلك أيام .. بدا المستوى بعدها منحطا .. ومر أخوه الكبير مباغتة ليرى الأمور ففرح فى خبث .. وانقطع الغناء وأخذ العمل يجرى كحيوان مذعور بمئات من الأيدى والأرجل وأدوات الحفر والمقاطف . ونظر « طه » إلى أخيه وهمس . « هل رأيت ؟!. هكذا يعملون » ..

لكن ذلك لم يشعل الحنق فى قلبه .

وفى المساء فى حجرة القهوة همس له « محمد الجندى » :

ـــ يقولون إنك لم تنجح ..

ضحك صلاح :

ـــ فى الشهادة ؟!

ـــ فى تشغيل الأنفار ..

ـــ أخذت منهم آخر ما عندهم ..

ـــ صحيح .. لكن .. لكنهم كل يوم يأخذون منهم أكثر من « آخر ما عندهم » .. بقر يضرب ليحلب .. ستتعب . لماذا رجعت من بور سعيد ؟!

ـــ أنت تخوفنى يا عم محمد .. بعد قليل سيفهمنى الناس .. أنا أبحث عن راحتهم ..

ـــ العمدة ينادى عليك .. إلبس ملابس العمدة وقف أمامهم يمشى العمل كما يريد أخوك . (ومصمص بشفتيه) لا إله إلا الله .. حتى بنى آدم .. محتاجون إلى « خيال مقاتة » ؟!.

* * *

(للزمن بقية)

ولم يستطع « صلاح » أن يكون فى قسوة الأرض . وكل يوم يمر كان يأس أبيه يزداد منه . أما الفلاحون فقد كان هو موضوع جدلهم فى الحقول والسهرات .. بعضهم رآه ضعيفا وبعضهم أحبه .. وبعضهم كان ينتظر له مستقبلا مثل مستقبل أخيه لكن الوقت لم يحن بعد . وعندما كان يفكر فى حقيقة شقيقه كلما مر الزمن — على إقامته هو فى الريف — كان يراه متكاملا فى ذاته بصرف النظر عن النوع الإنسانى الذى ينتمى إليه . ريفى مطلق لنفسه العنان . ذو شخصية (مؤكدة) .. والفرق بينه وبين « صلاح » أن « طه » لقى المادة التى (يشتغل بها) وهى الأرض وما حولها من تقاليد . أما « صلاح » فلم يجد بعد (مادته) فهو وإن اشتغل بالفلاحة لمدة سنتين لا يزال شابا لا يجد عملا فى حقيقة الأمر حتى الآن فى حين أن « طه » قوة موزعة بقدرة وحكمة . وإذا تطلعت إرادته إلى شىء ما بحث فورا عن أسباب تحقيق ما يريد . لا فرق عنده بين جريمة قتل أو رمى البذور فى أرض أو امرأة . يلقى بكل ثقله فيما يشغل نفسه به حتى ولو طارد أحد الأرانب .

لذلك فهو مهيب مرهوب الجانب . ولمعرفة الناس بأسرار نفسه تراهم لا يعنون أنفسهم بعناده بل يسارعون إلى الاستجابة . حتى نظراته الغرامية — إن صح هذا التعبير — لا يكتب لها أن تطول . فالطرف الثانى يعلم مقدما أن المراوغة تعب .. فتصبح وقائع الحب التى لا ينتهى عددها حوادث مبتسرة مثل بلع الطعام .

وكان النجومى الكبير يرى أن ابنه هذا خير من يرث تاجه . ولذلك عندما كتب للابن الأصغر أن يقيم بين أهله عاد يشعر بالغربة . وبدأت حماسته تخبو فقد مر على إقامته عامان . وبدأ لون أحلامه فى النصول من جو الريف

وغباره . وشعر بما قرأه يوما عن تولستوى بأن الفلاحين خافوا منه وقد كان ناصرهم فى الظلمات وأحس بأن بعض البشر مثل أرض المستنقعات قد تكون مهدا لجنة فى المستقبل ، لكنها اليوم إن زرعت الأشجار فيها بين الماء والغاب أكلتها بوحشية . كذلك .. قد تضيع الفكرة الصالحة ويهان نبى . ويهرع الناس إلى المعابد الوثنية وليس فى قلوبهم شىء من الرثاء حتى الغامض لنبى منبوذ ..

٤

مرض « النجومى الكبير » ومرض « محمد الجندى » فى يوم واحد ..

غاب الاثنان عن الدوار . وشعر « صلاح » بأن ساحته مثل كلمة غير مفهومة .. أو مثل ساحة العذاب الرومانية بعد أن تخلو من الأسود والمعذبين والنظرة ..

وبدا المكان وكأنه يخلع ملابسه قطعة وراء قطعة . لكنه الآن قد خلع القطعة الأولى . ولم يكن « طه » جالسا مكان أبيه . لعله كان متشائما . أما (شهاد الزور) الذين يحلى بهم مجلسه فقد التف بعضهم حول فراش العمدة وسعى بعضهم فى الأرض .

كان الوقت صيفا والجو حارا ، وصلاح عائدا من توه من بور سعيد مرة أخرى حيث زار صديقه الذى كان دليله نحو الهروب . كان اسمه « محمود » . شابا قليل المبالاة لكنه شديد الذكاء . وهو الآن فى كلية الطب . وقد سهر عنده صلاح وباتا يتحدثان ــ بطريقتهما ــ عن آلام الإنسان . كان « محمود » يتحدث وهو يضحك عن الأمراض والجثث . يرى البشرية فى صورتها بعد أن تبلى . هياكل وأعينا مغمضة ، ولذلك بدا قاسى القلب . أما صلاح فقد كان على عكسه يرى (الفكرة) دون أن يخطر المخ على باله ، و(النظرة) دون أن يفكر فى تركيب العين . وسهرا يعبثان ويلعبان الورق ويتحدثان عن الحب وعن الحروب والناس . باتا يتحدثان عن كل شىء ..

ثم ركبا أحد القوارب ليجولا فى بحيرة المنزلة . ولم يرها صلاح فى هذه المرة

قاسية ، وإن كانت النافذة التى تدخل النور والهواء هى نفس النافذة التى تستعمل فى الفرار من السجن ، لكن حتى شخصية الشباك تختلف من حادث لحادث ..

وقبل أن يفترق الصديقان قال « محمود » لصديقه : أنت الآن شيء مضحك .. أنت تعيش الآن على بقايا عصارة اكتسبتها أيام كنا فى الثانوى . لكن هذه البقايا ستزول يوما ما . ستصبح ريفيا حقيقيا يا صلاح فى تكوينك وإن كنت غير مرتاح لما يجرى حولك هناك كما حكيت لى . لكننى أعود فأنصحك ..

فقاطعه « صلاح » : أنت تعلم أننى لا أحب الدراسة المنتظمة وهذا عيب يجر حياتى إلى الوراء . فماذا أعمل لنفسى ؟.. إنها تطالبنى وتلح على كل يوم بأن أغير الأسلوب . والليل فى القرية يعذبنى ..

فرد صديقه مداعبا : هل تقبل نصيحتى ؟.. افتح ملهى فى المدينة .. وضحكا ..

وعندما عاد « صلاح » رأى جو البيت والدوار . وأحس عندما لمست قلبه هذه البوادر أن شيئا ما سيقع .. وكأنما ملأ سمعه نباح الكلاب .. ذلك الذى قال العلماء عنه إنه نذير بوقوع الزلازل .

وما لبث أن سعى نحو أبيه . رآه فى فراشه نهب الشيخوخة ولم يكن به مرض . كل ما به أن الحياة تنسحب وتتركه .. لكن عينيه لا تزالان فى قوتهما الروحانية الشريرة . وكأنهما تنظران إلى فم قاض سيقول كلمة ما .. وملامح وجهه لا تنطق بها .. وكانت ستائر الحرير حوله مهصورة . ورائحة بخور تقليدى .. ومجمرة صغيرة على البساط .. ولما سأله عن حاله لم يزد على أن قال : « عال » بلهجة احتجاج على الموت الذى ربما رآه الأب من خلال أهدابه .

وشعر « صلاح » بالأسى .. وأحس — أنه على الرغم من كل شيء — له به رباط . وجعل العمدة يمسح على شاربه الفضي كما ينظف ريشه طائر أنيق .. واختلس النظر إلى ابنه الذى لم يلبث أن تركه بين عائديه وخرج ..

ألفى نفسه فجأة عند دار « محمد الجندى » . كان الكلب واقفا على واجهة الباب فالدار من دور واحد . ولما رآه رحب به بعدة نبحات . ودق الشاب الباب فسمع صوت امرأة تقول : « ادخل » .. فعل .. كان الرجل راقدا على حصير فى الدهليز المكشوف فى ظل أحد الجدران . وحملق « الجندى » إلى الشاب وابتسم . واستضاء وجهه بطمأنينة عميقة . طمأنينة من يريد أن ينام فى كنه بعد أن عاد من غربة . قبله صلاح فى جبينه . فاحت رائحة عرق الفقير . وابتسم الرجل ثانيا :

— كيف حال الدوار يا صلاح ؟

— خراب ..

— لا قدر الله .. يقولون إن العمدة أصابته لفحة برد .. سلامته .

— وسلامتك ..

— من يعمل القهوة الآن ؟

— لمن ؟

— ليس هناك ناس ؟ ولا منازعات . ولا شهاد زور ؟ (وضحك) .. الدنيا تتغير يا صلاح .. غبت عنا .. ظننت أنك .. آه .. يعنى ..

— سأعملها ثانيا .. لا تخف (وقهقه صلاح) ستعيش وترى .

سكت الرجل طويلا ومسح عرقه بكمه .. وجلس .. وطلب ماء فأحضرت له امرأته كوزا .. شرب وتجشأ ..

— صلاح .. لعلى كنت محموما فى الليلة الماضية .. لا أدرى .. مؤكد أنى

كنت فى حلم .. ومؤكد أننى غير نائم .. سمعت ناسا يسألون عنى وراء هذا الباب . لكن أصواتهم كلها جميلة .. يسألون عنى وهم يغنون بطريقة تخطف العقل .. ولما عطشت قدمت لى امرأتى الكوز فشربت فوجدت الماء محلى بالسكر .. سى صلاح .. لعله تخريف .. ولما جعت قدمت لى امرأتى (سبتا) صغيرا فأخرجت منه كل ما تشتهى نفسى .. تغديت وتعشيت من طعام مختلف من نفس (السبت) .. سى صلاح .. ولما تقلبت على الحصيرة لم تكن بنت كلب كطبعها . كان عليها ريش مفروش .. وفوق رأسى طيور .. كأنها نتفت زغبها وفرشته .. سى صلاح .. هل بعض الحمى (ذواتى) وبعضها (فلاحى) ؟ هل أصابتنى حمى أولاد الذوات .. أو أنى سأموت وأدخل الجنة ؟

وضحك « محمد الجندى » كأنه غير مريض .. أما « صلاح » فإنه أخذ يدق كفا بكف وهو يضحك . وقال له : إنه سيأخذه إلى طبيب المركز فى الصباح الباكر . ولولا خوفه من أخيه « طه » لعرج عليه بالطبيب الذى كان يعود والده العمدة ..

قال « محمد الجندى » وهو يضحك فى وهن :

ـــ أراهنك .. إن سمح حتى للبيطرى . نحن نحارب الأمراض بعدم الخوف .. يا ما نصبنا للذئاب فخاخا وجررناها من ذيولها ودخلنا بها البلد . ولما شحنا عملنا (قهوة) .. كنت أسمع أبى يكلم الله فى الليل عندما يصيبه كرب كان يقول له كل ما فى نفسه .. كأنه صاحب سهران مع صاحبه .. واحد فى السماء وواحد فى الأرض .. وعندما ينام يصبح بلا هموم .. وقد فعلت مثل أبى منذ ليلتين .. وقالت عنى هذه العجوز المجنونة إننى مجنون ..

لكنى سمعت ورأيت ما حكيت لك عنه .. المهم .. هو كيف حال العمدة ؟!

— لا خير ولا شر ..

— شفاه الله .. وأنت يا سى صلاح .. لك خلقة غير خلقة كل الناس هنا .. متى أراك ماشيا فى شوارع مصر ..؟

وسكت قليلا . وسرح « صلاح » يفكر « لا بد أن أفعل ذلك » وهب نسيم .. وما لبث « محمد الجندى » أن استطرد فى شبه دعابة كأنها تحمل ألما :

— كم آية من القرآن ستكتبها على قبرى يا سى صلاح .. لا تنظر هكذا فأنا والله أقول الحق .. فقراء الموتى فى القرى يدفنون فى قبور بلا شواهد وليس على أبوابها آية واحدة .. (ويضحك الرجل) حرام .. آنسونا بعد موتنا بكلمة ..

اغرورقت عينا الشاب بالدموع .. وتراءت لمخيلته كتل ضخمة من الظلمات وكتل أخرى من النور .. وأخذ يفكر فى التركيب الإلهى لرجل مثل عم « محمد » هذا الذى أخطأه كل شىء حتى التعليم .. وكان حظه فى أرض « النجومى » أسعد من غيره فقد كان أبوه سائق عرباتهم وكان هو .. محمد الجندى .. مكلفا بغسل العربات وتنظيفها .. ورعاية الأطفال الذين كانوا يحبونه .. فكل طفل قد جاوز الخامسة من العمر من أبنائهم لم يخل خياله من حكاياته ذات الشواطئ والسواقى والجبال والشجاعة واللصوصية .. كان نوعا من الرجال إذا ترك لنفسه العنان فتداعت المعانى فى رأسه لا يكاد يكف .. وهو لذلك ذو جذور قوية فى هذه الأرض .

وسأل صلاح نفسه .. ماذا كان يمكن أن يكون من مثله لو تعلم ؟ لكنه كف عن الإجابة فقد شعر بخنجر يخزه فى جنبه .. إنه هو .. صلاح .. ينقص شيئا كبيرا فماذا يكون يا ترى ..

وأضفى من الرعاية على الرجل العجوز ما استطاع ثم فارقه بنفس المهموم ..

ولم تمض أيام قلائل حتى عاد العمدة إلى الدوار .. علا فى ذلك اليوم ضجيج غير عادى ولم تحدث خصومات .. وحتى الخصومات التى حدثت أجلت .. يوم عيد .. هكذا قال الناس له .. لكن « محمد الجندى » لم يحضر بعد .. إنه لا يزال مريضا . لكن أهم حادث اليوم هو أن السيد مأمور المركز مر على العمدة وهنأه بسلامة الشفاء ، ثم أخبره وهم على الغداء أن فرقة تمثيلية متجولة ستطوف بالمراكز وأنه — أى السيد المأمور — يرى أن القدر نفسه يحتفل بشفاء « النجومى الكبير » ، فبدلا من أن تعرض الفرقة ما عندها فى المركز فماذا لو عرضت ما عندها هنا فى قريته التى لا تبعد عن المركز بكيلو واحد ..

واستمرأ آل النجومى الفكرة وبدا على « طه النجومى » اهتمام أشد غموضا من الاهتمام البادى على وجه المأمور .. فقد علموا أن فيها سيدة لبنانية وبنات مثل الحوريات وأنها ليست من ذلك النوع الذى تحفل به « سنوامر » الريف بل هى فى الحقيقة قطعة من المدينة ستنزل القرية .

أما صلاح النجومى فقد بات يحسب الأيام .. وخلال فترة الانتظار هذه بدت له عيوبه الشخصية . بات غير راض عن نفسه .. فهو يعلم تماما أن الفرق كبير بين الذين يعصرون العنب والذين يسكرون بالنبيذ وهو يريد أن يعصر العنب ويسكر بالنبيذ فى وقت واحد . هناك غناء يخفف من العناء وغناء يترجم عن المسرة . يريدهما معا .. لكنه يكره الدراسة . وها هى ذى الفرقة التمثيلية المعروفة قادمة إلى قريته . سيكون كل شىء مضيئا وسيتحمل العمدة كل نفقاتها وإكرامها تعبيرا عن شكره لله بأن شفاه وعافاه .

النور سيغرق القرية وسيسهر الفلاحون ليروا ما يراه سكان العواصم .. الأذرع العارية والوجوه التى تشبه التفاح .

غير أن « طه النجومى » كان يقول ساخرا : إن حوادث متناقضة ستقع فى القرية بعد رحيل هذه الفرقة مباشرة .. حوادث طلاق وحوادث حمل .. لا شك فى ذلك . أما صلاح فقد كان يرجو يوما ما أن يكون شيئا . ولو واحدا من هؤلاء النكرات على مسرح مثل هذا .

على أن العمدة نفسه بعد عودته إلى مجلسه فى الدوار كان يحس أن المكان ينقصه شىء هام . كان يحس بأن روح « محمد الجندى » تؤلف فى وجوده شيئا لا يمكن أن يتجاهل ، فهو رجل جارح فى نقده لكنه صادق فى صدقه . وهو بعد ذلك كله الشخصية التى لم تعرف الخوف يوما . ولذلك فقد أرسله العمدة إلى الطبيب . ويوم عاد قال له بنبرة جد تخفى إعزازا ما : كنت أريد أن أرى وجهك لكن يهمنى أن أسمع صوتك فى هذا المكان .. غريب .. صوتك يؤكد لى أننى حى . أنت فلفل ملعون لكننا تعودنا أن نأكل طعامنا بك . ،

* * *

وكان أول ما عمله صلاح النجومى ليلة قدوم الفرقة أن قابل مديرها . كان صلاح فى ملابسه القروية الفضفاضة وهيأته الحلوة مثار إعجاب من رأوه منهم . وعندما جلس يحدثه عن « الملك لير » وعن « ديدمونة » التف حوله الكل ، ووضعت فتاة فى مقتبل عمرها ذراعها فوق كتفه وطوقت عنقه . وعرف منه مدير الفرقة مجمل قصته . وكانت القرية غارقة فى النور . أحضر لها النجومى الكبير (محركا) كهربائيا بمناسبة الليلة . وبدت الحقول المحصورة والبرك البعيدة شديدة الحياة فى الظلام . بدت القرية .. حتى المبانى الطينية كان عليها شىء من الزهو . وكان الجو حارا فساعد على الحركة .. خرج الفلاحون من كل سن ولم يبق إلا الأطفال والمواشى والطيور . والعجائز المتقاعدون بكوا ثم استعانوا بالتزهد . أما الذين كتب الله لهم الموت فى هذه الليلة فقد

جلس ذووهم حول جثثهم فى صمت . وربما لم تخل دموعهم من عتاب ..

وأمر العمدة أن تكون هذه الليلة خالدة . فلا يضرب أحد ولا يشتم أحد . وأن توزع السجاير على الرجال واللبان على النساء ، وأن يأخذ فلاحوه أجازة من العمل فى اليوم التالى ، ليناموا حتى الضحى ، وأجرهم محسوب . ومن تلد ولدا فى الصباح التالى لهذه الليلة فله من العمدة جنيه كامل . أما البنت فلها خمسون قرشا . ومن مات فى اليوم التالى لهذه الليلة فنفقاته الأخيرة على العمدة ، وعلى كل رجل غاضب امرأته أن يصالحها فى هذه الليلة حتى ولو كان صلحا من قبيل الهدنة ، وباختصار لا بد أن تشعر كل نفس بالسعادة وبأن نعمة كبرى قد أنعم الله بها على الناس بشفاء النجومى الكبير .

ودرج المكان الذى سيقف فيه الفلاحون بإلقاء كميات كبيرة من الرمل ترتفع بالتدريج كلما بعدت عن خشبة المسرح . وكانت الفرقة قد أعدت عرضا لمسرحية عن (شهرزاد) .. ورأى الفلاحون الملك (شهريار) قاتل العذارى .. وكانوا يعرفون قصته .. ظهر على المسرح المنصوب فى الحقول والذى لجأت تحت خشبته الضفادع تنقنق فضحكوا لها . لكن (شهريار) لم يضحك . بهرهم بوقاره ووجهه الذى لا يعرف الابتسام فتذكروا العمدة ، الذى لم يكن قد وصل بعد والذى بعث برسول يقول لهم أن يدعوا كرسيه خاليا فى الصف الأول حتى يجيء على مهله .

وبظهور الملابس المزركشة والوجوه الصبيحة التى زاد الماكياج روعتها خداعا نسى الجالسون شيئا فشيئا أن كرسى العمدة خال منه .

وكان الحراس حول الملك وقوفا فى ملابس زاهية وفى أيديهم رماح وفى خواصرهم سيوف . وبينهم شاب فارع الطول واقف فى زهو يرجو أن يدوم إلى الأبد بهر عيون المشاهدين عن قرب ، ولم يكن هذا الشاب إلا صلاح النجومى .

كان فى وقفته هذه ولو أنها فى دور صامت يحس أنه يحرس محرابا قدسيته لا توصف . وكان مطمئنا إلى أن عين والده وأخيه لن تعرفه حتى ولو كانا جنبه على خشبة المسرح . وكان ينظر إلى جمهور القرية الفرح ويتخيل — فى شبه هذيان — أنه سيعيش كهذا أبدا .. فشعر بالفرحة ..

كان الملك « شهريار » يخطو على المسرح ويناجى نفسه بصوت مرتفع : « إن قتلى للعذارى تعبير عن أن ملكياتى لا حدود لها ، وأننى أتمتع بحرية أعظم ملك .. فبدلا من أن أكسر الكأس بعد أن أشرب منها مرة وأرمى الرداء بعد أن ألبسه مرة ، وأقذف بعيدا بالوسائد التى أستلقى عليها مرة .. بدلا من هذا كله أعمل ما يدل بشكل أعظم على أن ملكياتى لا حدود لها .. نعم .. أقتل كل عذراء أتزوجها بعد الليلة الأولى بدل أن أقذف بها حية فيشرب رجل آخر فضلة شراب الملك .. نعم .. لكن .. أيها الحراس .. أين هذه الفتاة التى قالوا لى : إن اسمها شهرزاد ؟ » . فتحركوا على المسرح بسطوة جند الرومان . وتعلقت عيون الفلاحين وأنفاسهم ينتظرون دخول الفتاة التى قهرت بحكاياتها هذا الطاغية .

ودخلت حسناء تتبختر .. فى ثياب من المخمل والذهب .. وانتقل الترف بهذا المنظر إلى حقل حصد منه البرسيم حديثا .. وجأر الرجال وشهقت النساء .. وتسمرت العيون وأرهفت الآذان ، وسمعوا « شهرزاد » تقول وهى تنحنى : مولاى .. (فصفقوا) ..

كان هناك بين النظارة مهمومين وأنصاف مرضى ومطحونون ومعظم الجميع حفاة وبعضهم يحس بمغص كلوى وبعضهم ترك فى الدار مريضا ، لكنهم أحسوا بنشوة نسوا معها أنهم فى القرية .

كان « طه النجومى » جالسا إلى جوار كرسى أبيه الذى لا يزال خاليا لكنه

نسي وكذلك بقية الوجوه فى الصف الأول . وكانت عينا صلاح على كرسي أبيه الذى لا يزال شاغرا . وعندئذ سأل نفسه : « لماذا يا ترى لم يأت ؟ » ..

وعاد فاندمج فيما حوله « عطر روحى يفوح فى الحقول » .. هكذا رأى .. وتفحص نظرة الناس فى الفنان فكاد يبكى . وجعل يوازن بين نظرتهم إلى هؤلاء ونظرتهم إلى هؤلاء .. أى آل النجومى . فتنهد وهو يقبض يده بقوة على الرمح الذى يحرس به الملك على المسرح . ثم نظر معجبا إلى الملابس التى ألبسها له مدير التمثيل ..

وسهرت « شهرزاد » تحكى وتراود الملك .. والفلاحون مسحورون . وكل حبلى تمنت أن تضع أنثى .. على عكس المألوف .. لتسميها بهذا الاسم . وانتهى الفصل وبدأ فصل ، ثم .. نهض من الصف الأول « طه النجومى » وغاب أطول من المألوف ، وكان صلاح لا يزال واقفا فى الحرس بالملابس الزاهية والسلاح اللامع فما لبث أن لحظ أن كرسيين أصبحا خاليين وأن شقيقه غائب ..

قال أحد الفلاحين لزميل يجلس إلى جواره ممازحا له : لو دام هذا فماذا يكون اسمه يا ابن أمينة ؟ فرد عليه جاره : يكون اسمه جنة رضوان يا أهل الجنان . وهمسا بالضحك ..

لكنهما ما لبثا أن سمعا ما دهشا له . وكذلك بقية الحاضرين . كان « طه النجومى » يعدو نحو ماكينة النور ويصيح كالثور بصوت جريح مسموع مبحوح مفهوم نوعا ما :

« أطفئوا الأنوار .. إهدموا كل شيء .. العمدة مات .. مات النجومى الكبير .. » .

وأجهش بالبكاء ..

ولم تكن هناك ثانية واحدة للاعتراض أو التفاهم أو الحيلولة بين هذا وما وقع ، فقد رن عويل بين النخيل . وسارع عامل النور بتنفيذ الأمر فساد الظلام . وأشعل بعض الحاضرين مصابيح صغيرة حتى أتوا بفانوس تستطيع الفرقة أن تلم شعثها على نوره .

وبدأ الفلاحون يعودون إلى بيوتهم فى الظلام . كان يبدو لهم أكثر حلكة كأنهم وافدون من المدينة . وكان بريق الثياب المقصبة لا يزال يخطف أبصارهم وكذلك همسات « شهرزاد » .. تلك التى منحت نفسها حق الحياة فى مخدع الملك السفاح « ألف ليلة وليلة » ـــ عجزت عن أن تحمى نفسها نصف ليلة فى أرض النجومى .

وعاتب الفلاحون ملك الموت وهم فى الأزقة والحارات ثم وهم يأوون إلى النوم على السطوح فى عراء ليالى الصيف . وشعر بعضهم بطعم إحساس غريب .. لا هو فرح ولا حزن ولا هو ضجر ولا هو ضيق .. بل شعروا وكأن القدر ممثل يلبس قناعا يبدو أمامهم هذا القناع ونصف وجهه ضاحك ونصف وجهه يبكى ..

وقال « محمد الجندى » وهو فى الدار لامرأته التى عادت تقص عليه تفاصيل ما حدث : « العمدة .. رجل ليس فى قلبه رحمة حتى فى طريقة موته .. ابنه يحرق المستشفى الحكومى .. هل تتذكرينه يا فاطمة .. ليلتها أنار القرية وكنا لا نريد هذا النور .. ظلت النار تضئ الحارات طول الليل . والليلة يا فاطمة .. يطفئ ابنه النور .. وعلى كل حال ادعى الله ألا نعيش حتى نترحم على النجومى الكبير .. » .

وانطوى الفلاحون فى مراقدهم كأطفال سحبت من أيديهم اللعب .. مهمومين ..

أما صلاح النجومى فقد ذهل تماما للأمر . انزوى فى الظلام وحده كأنما هو الذى اقترف كل ما حدث . وذكره النوع الجديد من الفشل بما وقع له فى سفينة البضاعة . هناك خطف أمله وهنا خطف فرحه . ولم يكد يفكر فى أبيه بمثل ما فكر فى هياج الناس تحت الظلمة . كانوا حائرين بين أن يضحكوا مما حدث وبين أن يبكوا منه . خصوصا عندما علموا بعد قليل أن رجلا آخر قد مات فى القرية ومن الغريب وربما كان من الأغرب أن يكون هو « لحاد » القرية وقد اشتهر بكرهه الشديد للعمدة وكان يدعو الله أن يحيا حتى يوسده التراب فى المقبرة التى كتب عليها نصف القرآن .. وعلق الناس على ذلك لا بشىء إلا بقولهم : ليلة موت العمدة انطفأ النور ومات اللحاد نفسه ..

أما صلاح فقد ظل ساهما واقفا كمن فقد ذاكرته .. وأخيرا تحرك .. مشى فى الظلام بعد أن انصرف الناس .. ثم دخل إلى بيتهم فإذا بالوجوه كلها تحملق فيه . وبعضهم هرب . فقد نسى صلاح مما حدث أنه نزل من فوق المسرح بملابس الحراس الخاصة بالتمثيل ، ولما اكتشفوا ذلك عفرته أمه بالتراب وأمسك أخوه بتلابيبه وكاد يخنقه وهو يقول :

« هزأت النجومى الكبير حيا وميتا .. لن تقيم هنا أيها الفاشل الملعون » ..

٥

رحلت فرقة التمثيل وثيابها ناقصة ثوبا .. ولم تجد من يحاسبها على ما قدمت . ورحل العمدة وترك ثيابه كلها ..

وجلس « صلاح » فى مأتم أبيه مكسوفا مهزوما يفكر فى الرحيل المؤكد . وخرج محمد الجندى إلى مراسيم المأتم بجسم ناحل يوحى هو الآخر بأنه على وشك الرحيل .

كان « محمد الجندى » ينظر إلى الجموع المطرقة فى حزن ، الجالسة لعزاء « طه النجومى » ويفكر طويلا ..

وكان صلاح يوازن بين فرحة هذه الوجوه التى كانت حقيقية والتى بدت لصدقها وكأنها لعب ثم يتأمل هذا الشىء المصنوع فيرى الكذب بعينه . وشعر صلاح أنه لم يخلق للإقامة فى الريف وتذكر شوارع القاهرة . والليالى والأمسيات التى كان يختلسها وهو طالب فى المنصورة . وميدان الأوبرا والإعلانات التى تحمل أسماء النجوم . وليالى المطر وأبو الفرو المشوى ورائحة السودانى والسجاير والكبريت عند باب دور سينما عماد الدين .. والحارة الملتوية المظلمة عند دار الكتب تلك التى تصل ما بين شارع محمد على والخليج .. وبعض اللائى كان ينزوى بهن جنب الجدران المخططة . حتى الحب كان مرتبطا من باب المصادفات بهذا المكان . والمجلات الأدبية ، خصوصا تلك التى يحمل جلدها زخرفة عربية كأنها نقش على جدار مسجد تاريخى ، وما يقرؤه بين حين وحين عن معارك لرفع منارة جديدة .

وحضره وجه أحد مدرسيه الذين كانوا فى المنصورة . ذلك الوجه الصغير

والرأس الأصلع والوجه المدور تماما المسمسم تماما الصافى البشرة .كوجه طفل وحديثه المرح المتدفق وقامته القصيرة حين كان يرفع وجهه إلى « صلاح النجومى » ويقول له : « إن كنت مغرورا بأرض أبيك فاعلم أنها ليست ملكه . وبالتالى لن تنفعك . أنت تملك يا بنى ذوقا وحسا حرام أن تهمله . أبوك عنده سياس للخيل وأنت عاجز عن أن تسوس أغلى ما يعطيه الله للإنسان .. أنت خائب كتلميذ لكن .. ربما كان لك مستقبل .. لا أدرى .. » .

وعبثا حاول « صلاح » حين كان يلج على هذا المدرس حجرة المدرسين ويتودد إليه وحينما يكون وحيدا معه ــ حاول أن يفهم .. منه ما يقول . فما معنى أن أرض أبيه ليست ملك أبيه وأنها بالتالى لن تنفع صلاح ! وما معنى أنه يعلم أن صلاح تلميذ فاشل ولكن ربما يكون له مستقبل ؟!

فكان هذا المدرس العذب الحاد يضحك ولا يشفى له غليلا .. وها هو ذا اليوم يعلم أن هذه الأرض حقيقة لن تنفعه . كأنها نبوءة . هذه مقدمات أعاصير تلوح فى حياته . أولها سقوط مهابته فى أعين الفلاحين عندما علموا أنه دخل على أبيه الميت بملابس التمثيل .. ثم نظرة أخيه القديمة له . ثم تكوينه النفسى . هو شخصيا يشعر أن يديه هاتين صالحتان لعمل غير ضرب الناس وسرقة ما فى الجيوب قبل أن يدخل إلى الجيوب . ويشعر أن نفسه محتاجة إلى أشياء كثيرة لكنها مع كثرتها متناهية فى بساطتها . محتاج إلى أن (يعرف ليرقى) وهذه الكلمة خلاصة إراداته بل وشهواته . وهو وإن كان الآن فى التاسعة عشرة من العمر فهو أكثر نضجا منه منذ عامين .. فكأنما كبر عشرة أعوام .

ماذا سينازع عليه أخاه « طه » .. « طه » هذا قد كون شخصيته وعرف طريقه .. وهو بعد الآن غنى عن المعرفة . فليست الشجرة التى تبلغ فى أعلى مستوياتها خمسة أمتار بقادرة مهما سقيت وروعيت أن تكون فى انطلاق شجر الغابة .

(للزمن بقية)

وأحس « صلاح » أنه فى حاجة إلى البكاء .. كان يرى صفوف المعزين وهم ينصرفون ويرى التاج الطينى على رأس أخيه قبل أن يوضع حتى أن بعض القرويين كانوا ينادونه مقدما بحضرة العمدة .

ولم يحس صلاح بأى نقمة على أخيه . بل أحس أنه وجد الطريق الذى يصلح له . « لكن العيب فى أن آخذ طريق غيرى وأعطى غيرى طريقى .. وعندئذ سيكون الضلال مضمونا » .

وتأوه .. عادت إليه ذكريات ليالى المنصورة .. والشعر المكسور .. والشعر الأصفر .. والأمانى الثقافية .. وعظمة الرحلات .. وناس يرى صورهم فى المجلات والصحف .. مثل عدة أنبياء فى هذا العصر تعددت رسالتهم . وهناك أيضا أنبياء عدة لرسالة واحدة .. يختلفون بعد تلقى الوحى وصوغه للناس فى صور الفن والأدب .

وتصور « صلاح » أنه أخذهم يوما وجعلهم فى قصر مسحور حتى يكونوا ملكا له .. يعنى .. أوقاتهم وتعاليمهم .. وعندئذ كان يضحك . فصوت البلبل الذى أعجبه وخطف لبه واهتمامه منذ الطفولة حتى أصبح يحاكيه محاكاة غريبة ؟ هذا الصوت سحره ناجم من أنه يتردد فى فضاء السماء . ولو غنت له سيدة الغناء فى حجرة مقفلة ومعها زينتها وفرقتها ما أحس بالحبور .. فالنغمات .. الخلاء الواسع وطنها الطبيعى وكذلك الفكر ..

وتصور شوارع القاهرة المشوشة بالليل .. ورجالا يلبسون أحذية برقاب طويلة ليزيدوا الشوارع تلميعا بعد أن يعود الناس من السهرات . ومآذن تلمس القمر . وقلوبا . وكتبا وبيوتا يجتمع فيها المفكرون ، والسيدات .. اللائى يشاركن فى دفع الحياة وسحرها . أحمر الشفاه فى حقائب أيديهن وإلى جنبه قلم الكتابة . ومرآة صغيرة . وجدول بمواعيد العمل . وبنطلونات يلبسنها على

ظهور البواخر . وعالم يحرك بعضه بعضا . فيه كل يوم فكرة تجعل الماضى قديما والحاضر معقولا والمستقبل أكثر سحرا . عالم .. حتى الشحاذون فيه أصحاب مواهب يحملونك على أن تعطيهم وأنت غير مقتنع لأنك تعطى (فنهم) الذى حرك الكف فى اتجاه غير الذى يريده صاحبها . وحتى اللصوص فيهم ذوو مواهب .. وحتى الأطباء ..

وهز هذا الإحساس كيان الشاب فبكى .. أجهش بالبكاء فجأة ، كان لا يزال جالسا فى الدوار والناس من حوله فإذا بالرجل الذى عن يمينه والرجل الذى عن شماله يربتان كل على كتفه بطريقة ريفية فذة ويهمسان له كل فى أذن : عيب .. اصبر .. الرجال لا يبكون » ..

كاد بعضها يضحك .. أما أخوه « طه » فقد كان يجول بين الناس فى أبهاء الدوار الكبير وكأنه فارس يجر طيلسانه . كان عوده وحركاته وكل شىء فيه يتحدث فى صمت (يقال إنه حزين) عن عظمة الوارث وعظمة الموروث .

* * *

وانفض سامر الحزن فى قرية « النجومى » مثلما انفض من قبل سامر الفرح . وتفرق الفلاحون كما تفرقوا من قبل . وعادت إلى الحقول أصوات الثيران والجرارات ولكن بلا غناء . أما « صلاح » فقد قال لأخيه :

ــ إنى أريد أن أرحل .

فقال له صارما .

ــ هذه المرة باختيارك .. هذه المرة ليست على حساب أحد إلا جيبك وحده . مات أبوك وانتهى الأمر . (ثم بنبرة غريبة صادقة لم تخل من الحنان) أنت حقيقة لا تصلح للمعيشة هنا يا صلاح . فكر على مهلك ..

ولم ينم « صلاح » هذه الليلة ، بات يفكر : « سأرحل إلى القاهرة ..

أخى سيعطينى إيجار ما ورثته عن أبى من أرض .. ولكن .. إن ميراث أبى من المعرفة لا يصله إلا بالتجار والسماسرة وربما المرابين ..

و .. أخذ يتذكر .. « رجل من رجالات البنوك ، رأيته مرة ، كان يتغدى عندنا ، الأبيض الوسيم الأنيق ، لا أعرف له لقبا ، هو أستاذ وبك وباشا ، لكن هذا لا يعنينى . كان فى يده يومها مجلة غير مشهورة لكننى أخذتها وجعلت أقرأ فيها . يومئذ قال باسما عن أسنان نظيفة : هل أعجبتك ؟ فلما أومأت أن نعم قال لى : إنها لك . لست هاويا ذلك النوع من الكلام . خذها فإن صاحبها يبعث إلى بعدد منها كل شهر .. إنها شهرية .. » .

وها هو ذا صلاح النجومى وقد سكن فى شارع حسن الأكبر فى القاهرة يرى دار الكتب من نافذة جانبية من مسكنه . وها هو ذا يذهب إلى بنك .. ليقابل (الأستاذ البك الباشا) ، ورحب به بعظمة الألقاب الثلاثة معا وطفولة فى شخصيته الباهرة . وأرسله بتوصية إلى صاحب المجلة .

كانت تقع فى شارع محمد على المؤدى إلى القلعة على مقربة من دار الكتب ، فى مستطيل آهل على مسافة نصف كيلومتر ، بالمكتبات والمطابع والمطاعم وفنادق النوم .. وبواكى الشارع آهلة بالملصقات التى تحمل أسماء النجوم والفرق والإعلانات المختلفة .

وأحس « صلاح النجومى » أنه مغموس فى نشوة .. أعماق عطرية مسكرة . فى جيبه نقود وقد ترك القرية . وسيقابل صاحب هذه المجلة الشهرية وسيعمل فيها عملا ما وعن طريقها سيتعلم .. « لتسقط الدراسة المنظمة .. » فليعمل حتى بلا أجر . المهم أنه يتعلم .. كيف يصل إلى ما فى أعماقه . إنه حنين غريب . لا يستطيع أحد أن يعرف ما هو إلا أصحاب المجلات .. نظر إليه الرجل نظرة غريبة ، كان جالسا خلف مكتبه قصير القامة ضعيف البصر

نحيف الوجه ، وأمامه شاب فى كامل بزة وهيأة من أجمل ما منح الله . وأخذ يتفحصه وكان شديد الذكاء ، فعرف بسرعة ماذا عسى أن يكون .. خصوصا عندما عرف لقبه وعرف أن أسرته من ملاك الأرض . ولم يكن فى المجلة موظفون بالمعنى المعروف ، كان فيها رجل يعتصر رزقه اعتصارا من يد رجل آخر هو صاحب المجلة . وعندما رأى الأول صلاح النجومى يدخل عليه ومعه توصية من (الأستاذ البك الباشا) قلق على مصدر رزقه ولو أنه ضئيل . لكن ما حدث بين صلاح وبين الأستاذ التهامى صاحب المجلة كان على الوجه الآتى :

الشاب واقف والرجل يحملق إلى آفاق بعيدة بشرود لا يخلو من التمثيل ينظر فى السقف ثم فى الورق ثم فى الساعة ثم فى الشاب وأخيرا قال له :

ـــ لقد جئت فى الوقت المناسب (خفق قلب الشاب كغريب عاد إلى وطنه) فنحن فى أشد الحاجة إلى مترجم متمرن ، ويبدو أن الأستاذ قد أرسلك لأنه يعلم مدى حاجة المجلة إلى ذلك .. حسنا .. ستترجم عن الفرنسية .. أليس كذلك ؟.. هيه ؟!

جف ريق الشاب .. هز رأسه بالنفى ولم يتكلم .. وخيل إليه أن قوامه يقصر شيئا فشيئا . وعندئذ دهمه الأستاذ بسؤال آخر :

ـــ حسنا .. عن الإنجليزية ؟.. لا بأس .. يمكن أيضا .. الآداب العالمية بعضها يعيش على بعض .. سمك يتكاثر بالتآكل .. ها ها ها .. وأنا سأترجم أدب الأطفال وأكتب المقال السياسى .. وعليك أنت بالكلاسيك .. (نطقها مفخمة جدا) ..

هز صلاح رأسه نفيا ، وندم على ما فعل ونظر إليه صاحب المجلة الذى هو فى واقع أمره غير محتاج لشىء من هذا وقال له : إذن ماذا تريد أن تعمل ؟ هل

سبق لك العمل بالصحافة ؟ هز الشاب رأسه فى إرهاق كأنما هزه ألف مرة . وود لو أنه جرى لكنه خجل . فعاد الرجل يسأل بتلطف شديد على عكس ما كان الشاب يتوقع :

ـــ إذن ما هى ثقافتك ؟!

فأخبره فى تلجلج .. فسكت الرجل وأشار إليه بالجلوس ثم دق الجرس .. فدخل عليه رجل فى منتصف العمر على محياه علم وكآبة .. وخجل ، فى ثياب تمثل الرثاثة الأنيقة . وقف أمامه يأخذ الهواء من أنفه بين حين وحين وصاحب المجلة يسأله : هل ترجمت كذا ؟.. وهل صححت التجربة ؟ وهل قابلت فلانا ؟ وهل ذهبت إلى البنك ؟ وهل أعطيت (فكرى) الصغير درسه ؟.. وهل النظافة فى المجلة على ما يرام ؟!..

كان الرجل يجيب دائما بنعم . وكان صلاح النجومى جالسا ساعتئذ على كرسى من الجلد تساقطت أحشاؤه فبدا عميقا .. وأخذ يحملق فى صاحب المجلة فإذا الذكاء يقطر من وجهه الخبيث . ثم أومأ للموظف برأسه علامة الانصراف .. فمضى وترك صلاح النجومى فى المقعد المتداعى وأخذ يكتب شيئا حتى وجد الشاب نفسه محرجا بين أن يقطع عليه ما يفعل وبين أن يبقى هكذا وبين أن يخرج بلا استئذان ، وأخيرا تشجع وقال : « أستأذن » . فهز له رأسه بالإيجاب .

كان فى خروجه يجتاز طرقة مبطنة بألواح من الخشب تقادمت وتآكلت . وكانت عينه فى الباب الذى سيؤدى به إلى البهو الخارجى ليترك الدار . لكنه قبل أن يصل إلى الباب لقى الرجل المتوسط العمر والطول الخجول الذى يحمل بعض الوسامة والذى كان عند صاحب المجلة ـــ ألفاه واقفا بانتظاره . فوضع الرجل يده على كتف صلاح ورفع إليه رأسه وقال له وهو ينفخ من أنفه لكن بحياء :

ـــ سأكون هنا وحدى هذه الليلة . ممكن أن تمر على ؟

حملق صلاح فى عينيه الملونتين خلف النظارة الطبية ثم قال له بقلب مرتاح :

ـــ ممكن .. ممكن جدا ..

عندئذ انفرجت شفتا الرجل عن ابتسامة سأل صلاح نفسه عن مدى سحرها لو أنه شاب . ابتسامة كأن صاحبها لم يعرف القلق ولا الخوف ولا المرض ولا الحاجة فى صفاء ابتسامة طفل يستكين لدفء صدر الأم .

و لم يكن هناك عناء كبير بالنسبة لصلاح فى العودة مساء . حتى ولو كان المكان بعيدا . انحدر من شارع حسن الأكبر حيث نظر فى شوق صوفى إلى مدخل دار الكتب وهو مار بها وكانت ليلة صيف طرية . وميدان باب الخلق يموج بالنور والروائح ثم انعطف إلى يساره إلى حيث يلقى الرجل فى المجلة .

كانت فى بيت كبير قديم ، مدخله يقبض القلب . لكن حوش البيت الواسع المكشوف كان مضيئا بالقمر وبعض الأنوار الخارجة من النوافذ ، ويغلب على المكان رائحة كيروسين وورق وربما تراب . وفى السلاملك المواجه عرف طريقه . و لم يجد أحدا يستأذن منه . دخل فوجد الرجل مكبا على تجارب ليصححها . كان قد أوشك على الانتهاء ، لكن صلاح النجومى أصر على أن يساعده بأن يقرأ عليه (الأصل) ، وكانت علامات الرضا تتخايل على الوجه المظلوم الجالس أمامه على مكتب ذهب دهانه . حتى إذا ما انتهى العمل اعتدل الرجل فى جلسته وحرك أطرافه واستلقى على الكرسى وتأوه بلا تذمر كأنما ليعلن لنفسه أن العمل قد انتهى ..

مرت فترة صمت . كل منهما ينظر فيها إلى الآخر ، كل منهما كأنما يسأل

القدر فى نفسه عن السبب الذى من أجله دبر هذا اللقاء . وعادت الابتسامة المؤنسة إلى فم الرجل وسأل الشاب بلطف رقيق :

ـــ أعمل لك قهوة ؟ (وقبل أن يجيب صلاح كان الرجل قد استطرد) لكن ليس عندى بن ..

يتكلم كأنه يقرر حقيقة لا جراح لها . كأنه يقول الجو حار وليس عندنا مروحة . وضحك صلاح ، ورد بشهامة الريفى :

ـــ متشكر .. يكفى لقاؤك ..

فقال الرجل :

ـــ حسنا .. هل تدخن ؟!

فأخرج صلاح علبة سجاير ووضعها على المكتب وأشعل كل منهما واحدة .. هكذا ببساطة .. وعندما استوعب الرجل الجالس على المكتب أمام الشاب أول نفس من السيجارة بجوع شديد استرخى على الكرسى وقال له وكأنه يعرفه أو يقرأ عليه مقالا فى إحدى التجارب :

ـــ اسمع يا سيدى .. اسمى « البدوى السيد » .. يعنى على عكس « السيد البدوى » . أظن أن هذا اسم لا ينسى .. وإحساسى بأن اسمى على عكس اسم « السيد البدوى » يجعلنى أتوقع أنه لا بركة فيه .. (وضحك لكن صلاح كان منتبها متأملا) ويزيد فى ظنى هذا ما ألقاه فى حياتى ..

ونفخ الهواء من أنفه وحملق فى مصباح السقف .. كان ذباب كثير يرصع سلكه الطويل . يرقد بطريقة كائن أغمض عينيه عن النور حوله . فقال البدوى لصلاح وهو يشير إلى السلك :

ـــ فى حياة بعض الناس أشياء مثل هذا . تصور أننا هيجنا هذه الأبابيل

بعصا مثلا .. ليس هذا مهما لكن المهم هو أننى أردت أن أعرف منك .. أى سبب فظيع رمى بك إلى هنا ؟!..

حاول صلاح أن يتكلم .. لكن الرجل منعه بإشارة من يده .. تلك التى لم يكن كفها نظيفا .. فيها صفرة تدخين وحمرة من زجاجة حبر .. ومد يده إلى العلبة وأخذ سيجارة أخرى . أحس صلاح بعدها أنه نفسية لا تشعر بالتحرج .. ذات سجية مليئة بالأمان والتعاسة . ثم استطرد البدوى :

ــ لكى أحدثك عن (جونا) لا بد أن نحتاج إلى أيام .. كنت أقول الشعر فسكت عنه لأننى وجدتنى أرسم به بلائى .. وأنا شخصيا أرى أن حياة مثل حياتى حرام أن ترسم .. (ونفخ الهواء من أنفه) موقع حذاء ملوث بالطين على سجادة عجمى .. آسف .. قل .. قل لى من أنت ؟!

قبل أن يتكلم صلاح وهو الشاب الصغير عجب كيف يطمئن إليه رجل لا يعرفه ؟ وكيف يفضى إليه بمثل ما أفضى .. فاته أن الإناء الطافح لا يتخير ما يريق عليه طفحه .. لكنه شعر بحب شديد وعطف لا يوصف .. وشعر أن (الأستاذ البك الباشا) قد صنع جميلا حين ساقه مصادفة لملاقاة مثل هذا الشخص . إنه وهو يصف تعاسته يشعرك وكأنه يخلع ثوبا باليا ليرتدى آخر قشيبا .. وجهه لا يحمل آية من آيات التذمر . كأنه نموذج يقول : « إن قوى الإنسان فوق كل عذاب » .

لكن صلاح النجومى عاد بذهنه إلى القرية : « ماذا تركت هناك ؟! وماذا ألقى هنا ؟!.. تعاسة بين أعواد القمح وأخرى على نواصى الشوارع وخلف نوافذ من الزجاج .. وتعاسة يعبر عنها صاحبها بالشعر وأخرى يعبر عنها صاحبها بالشتائم وأخرى بالتأوه ، وهناك تعاسة يعبر عنها صاحبها بألا يتكلم

.. مثل نيران النجومى .. » .

وقهقه « صلاح » قهقهة عالية . عجب لها « البدوى » واحمر لها وجهه ، ولكن الشاب عاد فاعتذر ، وأخذ يقص عليه شيئا من وقائع حياته .

فرغت علبة السجاير وهما جالسان . وأحس الرجل بنشوة ، أحس أنه لقى شخصا ارتاحت له عينه . وكان الوقت قد تقدم ، الساعة الآن تدنو من الحادية عشرة ، بقى على منتصف الليل ساعة ، فقام الرجل فى صمت وأقفل أبواب الحجرات وقال مداعبا لصلاح :

ـــ هكذا أمرنى .. حتى لا تسرق أسرار المجلة .. مع أننى آخذ كل ليلة أسرارها معى (وأشار إلى رأس نفسه) .

وأطفأ الأنوار وأوصد الباب بالمفتاح وخرجا .

اخترقا الحوش المقمر . وذابت نوعا ما مع مرور الوقت رائحة الكيروسين والورق التى شمها صلاح وهو داخل . ثم لاقاهما شارع محمد على ببواكيه الغامضة والترام خلف الترام فى طريقه إلى المخزن . ولم يكن فى ذهن أى منهما إلى أين يتجه . لكن صلاح النجومى قال لصاحبه عندما وصلا إلى رأس شارع حسن الأكبر :

ـــ تفضل معى .. فأنا أسكن هنا ..

فما كان من زميله إلا أن قبض على كفه وقال له برجاء صادق لا كلفة فيه وهو يرفع إليه رأسه لأنه كان إلى جواره بادى القصر :

ـــ تعال أنت .. أرجوك .. لترى بيتى ..

رد صلاح فى تحفظ :

ـــ إن من فيه قد نام .. لا داعى للقلق .. مرة أخرى ..

ـ لا ينامون قبل أن أعود .. الكل هناك بانتظارى .. وسترى الجميع ..
ـ هل تركب ؟!..
ضحك الرجل ضحكة قصيرة جدا كأنها شهقة .
ـ نركب ؟!. لم يحن الوقت بعد .. لم يأتِ دورنا فى الركوب يا بنى .. بيتى قريب ..

* * *

شارع الخليج يتلوى بهما .. ما له خططط معوجا هكذا ؟!. قالوا إنه كان ترعة وردمت .. لكن ما لهم تركوه فى اعوجاج ترعة شقت طريقها بنفسها ؟ النور فيه خافت لتباعد المصابيح .. ليس على جانب من جوانبه بيت جديد .. روائح القاهرة بذكريات كثيرة تملأ أنف البدوى .. وهو ماش مع صلاح النجومى .. تحت إبط الرجل عصا رفيعة أنيقة من الممكن أن يتوكأ عليها وإن كانت قصيرة .. عصا تبحث عن « مايسترو » ضاع .. وصلاح قد وضع كفيه الاثنتين فى جيبى بنطلونه .. وكلما سطعت الأنوار فى بقعة من الشارع حملق كلا الرجلين فى وجه الآخر ، كان البدوى يحكى عن أشياء فى طفولته .. يذكر يوم دخل مع والديه أرض مصر .. سحنته كعربى من حدود تركيا أو تركى من حدود بلاد العرب .. تعلم الإنجليزية فى الصغر من لسان أبيه ومربيته .. يذكر أنه كان يسخر من (مربيته) فيخفى معطفها الأبيض فى حظائر الأرانب إذا ما قست عليه . وكان أبوه ضابطا متقاعدا .. يمشى بخيلاء على رجل من صنع الله وأخرى من الخشب .. وتخلعت أسنانه مبكرا فركب طاقم أسنان كان يعطره بروح النعناع . لذلك فإن البدوى السيد يقول الآن مداعبا لصلاح النجومى وهما فى ظلام شارع الخليج :
ـ انظر إلى سلامة أسنانى ، من خوفى مما لحق أبى ترانى معتنيا بها . وانظر إلى عصاى . من خوفى أيضا .. أحمل معى رجلا احتياطية ..

ولما ضحك صلاح استطرد الرجل فى وقار أكبر من سنه ، وقد كان منذ هنيهة فى طفولة حقيقية :

ـــ هل تعتقد أن حياة هذا العصر فيها ضمان ، قل لى .. من هذا الذى سيعطيك الضمان .. فرد ؟ لا .. مجموعة ؟. الدولة بحالتها الراهنة ؟ لا .. أنت نفسك قادر على أن تعطى نفسك الضمان ؟. لا .. فليس شىء يضمن نفسه فى الدنيا إلا الذهب حين يتحول إلى .. حب .. أما إذا تحول الحب إلى ذهب فعلى الاثنين لعنة الله .. ها نحن أولاء قد وصلنا . هل أتعبك المشى ؟ إنه رياضة جيدة إلا فى حالة واحدة . حالة ما إذا كانت المعدة خالية من الطعام ..

وجم صلاح ولم يرد .. وصلا فى شارع الخليج إلى ورش السكة الحديد خلف حى المنيرة أفقر بقعة فى الشارع فعرجا إلى بيت الرجل . لم يكن موقعه أشد إنصافا من (موقع) ساكنه .. الباب فى مستوى الحوش الضيق . ومن الغريب أن يهبط الداخل أربع درجات إلى أسفل بعد أن يفتح باب الشقة .. والحوش مظلم .. والسلم ممتد إلى أعلى فى عناء .. مظلم حتى فى النهار .. أولى درجاته على مقربة شديدة من باب السلاملك الذى يفتح الرجل بابه الآن . وصلاح النجومى يلهث فى صمت لهثانا معنويا .. أين السعة التى عاش فيها؟.. الحقول والدور والدواوين وحتى المقابر . مقبرة أبيه من الممكن أن يبنى على مساحتها أربعة بيوت . كان شاردا والمفتاح يدور فى الباب ولا يفتح .. وأخيرا انتبه صلاح .. وسأل :

ـــ القفل فاسد ؟

ـــ لا .. ربما المفتاح هو الفاسد ..

ـــ أنت تحمل مفتاحين يا سيدى أظن ذلك ..

(فتذكر الرجل مفتاح المجلة) .

وضحك الرجل فى شبه سعادة .. قليلو الأخطاء يضحكون من أخطائهم

كشيء لم يعتادوه وكثيرو الأخطاء يضحكون لأنهم تعودوا . وأخرج الرجل المفتاح الحقيقى وفتح الباب .. وحذر صلاح من أنه سينزل .. « أمامك أربع درجات لاحظها فى الظلام » ..

كانت كل كلمة فى هذه الليلة تحمل للشاب معانى غريبة . كل الأشياء حافلة بالرموز .. الحارات والشوارع والكلمات وحتى أسنة المآذن ، والروائح والأصوات .. أحس أنه دخل إلى عالم يحتاج فيه إلى (مترجم) ولعل البدوى هذا هو السبب فى كل ما أحس به ..

وسبقه ليشعل مصباحا .. فى حجرة يمكن أن يستقبل فيها ضيوفه واقعة إلى اليمين . هى الوحيدة التى تملك شباكا على حارة ، وصالة المسكن واسعة بالنسبة للحجرة يصب فيها مسقط البيت.. بنوره وقمامته وقطع الغسيل.. ولعب الأطفال وفضلاتهم ..فوق أصص مختلفة الأنواع من صبار مصرى .. وقطعة من الرخام موسدة على الأرض كأنها نزعت من مقبرة إيطالية ، لم يكن هناك شيء مكتوب عليها ..

وقال صاحب المسكن للضيف : أرجوك أن تخافت بصوتك حتى لا يستيقظوا إنهم فى الغرف الداخلية .

وفعل الضيف وقد أحس بالحرج والندم معا . لكنه عندما دخل الحجرة اليمنى رأى تناقضا بين القول والواقع .. فهناك مكتب صغير لكنه أنيق يبدو غريبا للغاية بين بقية الأثاث ، يتدلى فوقه مصباح قوى النور ، وفى الحجرة سرير رخيص ، وكتب منثورة ، وعلى أرضية الشبابيك مجلات وأوراق وغبار . وهناك منضدة كبيرة جنب السرير عليها قوارير ذات روائح لا تفهم .. والأرض مفروشة نصفها ببساط ناصل أحمر اللون ونصفها الآخر بالحصير الملون . وليس هناك ما يدل على أن يدا هنا تنظف مما جعل صلاح يستنتج أن هذه الحجرة محرمة على غير رب البيت ..

وجلسا يدخنان مرة أخرى ، وفجأة — بلا مقدمات — سأل المضيف ضيفه :

— من الذى أرسلك للأستاذ التهامى صاحب المجلة ؟

فلما أخبره قال :

— هل يعرفه ؟ أظن لا . وأظن أنك عرفت عنه اليوم شيئا ، هو رجل يتمتع بذكاء نادر .. وهو لذكائه لا ينتمى إلى حزب . إنه ينتمى إلى مصالحه فقط . وهو يكتب المقال السياسى بقلمه حقيقة . لكن هذا المقال يدر عليه أموالا ليست من التوزيع لكن من المقال نفسه .. حتى ولو كانت المجلة من نسخة واحدة ..

— لست أفهم شيئا ..

تنحنح الرجل وتلفت حوله ثم ابتسم قائلا :

— عندما يكون الصدق ميئوسا منه يلبس الكذب ألوانا زاهية . ماذا أقول لشاب مثلك ؟.. ترك « الأطراف » فى الريف وسعى نحو « القلب » فى العاصمة .. جيلكم لا بد أن يتبوأ مكانه .. صحيح كنت تسألنى ونحن فى باب الخلق : « هل نركب ؟ فقلت لك إن الوقت لم يحن بعد » .. عندما يركب جيلكم ربما يفعل ما عجزنا عنه ..

— لست فاهما . (قالها فى شبه ضيق) .

— ستفهم قليلا قليلا .. لا بد أنك ستدفع ثمن الفهم .. كما دفعت أنا ودفع غيرى .. انتميت إلى الأحزاب العلنية والجمعيات السرية .. فرأيت الكل يكذبون . هل تعرف ما السبب .. (هى هى هى) بسيط جدا . هو أن من كذب فى السر كذب فى العلن .. فقررت أن أعيش هكذا .. غير أنى أومن بأن حزبا واحدا هو الذى يخلص البلد . هو حزب الفلاح .. هل تسمع عنه ؟ إنه مخيف ولو أنه لم يزد على كونه لافتة ..

— الفلاحون لا يعرفون شيئا عنه . وكذلك أنا ! (وببساطة) هل هذا الحزب موجود فى قرية ما ومهمته إصلاح الأرض ؟ أو أنه موجود فى أحد القصور هنا ؟!

ضحك الأستاذ البدوى :

— موجود فى المدينة ومهمته إصلاح الفلاح نفسه (وضحك) عن طريق .. آ .. عن طريق .. (وسكت) .. أقول لك هذا فيما بعد . المهم أننا محتاجون إلى حزب لا يحكم .. رئيسه (روح) قبل أن يكون (سلطة) .. وروحانيته تجتذب إليها كل ما يضيء فيندمج فيها .. ويصبح جزءا منها فتتزايد هى وتكبر كما تكبر العقائد بأداء الشعائر .. هل تعتقد أن كل ما نسب إلى لقمان الحكيم أو أبى نواس أو اللص الشريف كله حقائق ؟.. كل حكمة من صنع الحكماء المجهولين نسبت إلى لقمان ، وكل ضربة شجاعة نسبت إلى عنتر ، وكذلك الباقون .. لكن قل لى هل أعجبك صاحب المجلة ؟..

— أود أن أخوض التجربة بأى ثمن .. ولو مع .. لص ..

— أووه (ضاحكا) لقد وجدته اليوم .. قم أفرجك على بيتى ..

وجره من يده ..

اخترقا الصالة والمسقط الآن إلى اليمين ، فيه الصبار المصرى والرخام الإيطالى وأشياء تحتاج إلى كنس .. وفى مواجهة حجرة الجلوس حجرة أخرى جنب دورة المياه ، ذهل صلاح والأستاذ البدوى يفتحها له .. وعندما أضاء النور بدت له خالية من الناس .. فيها ركام غير منظم من صور زيتية لم يفرغ منها . وأدوات مصنوعة من القش .. ومناشير .. وصناديق .. حجرة لرجل يعمل كل شيء .. وفيها ماكينة خياطة موضوعة على كرسى .. وليس فيها أثر لإنسان قط .. قال صلاح فى نفسه وقد فتح عينيه : « ما هذا ؟ » .. ثم هتف ما كان فى سره فقال صاحب البيت : هذه أسرتى .. هذه الأشياء هى التى

تنتظر عودتى كل ليلة . أسهر فى هذه الحجرة لأرسم أو أصنع أشياء من القش أو أخيط بعض الملابس . أما الحجرة الأخرى فهى مكان للقراءة والنوم .. و لم تبق إذن إلا دورة المياه .. عيشة بسيطة .. ما رأيك فيها ؟!

ـــ ألا تشعر بالوحدة ؟!

ـــ الوحدة ؟!. الوحدة معناها أن تلتقى بنفسك وجها لوجه .. وليس عندى وقت لذلك .. أنا أعمل كل شيء حتى أستخرج العطور . وأتعلم الحفر على الرخام وأترجم وأقول الشعر وأكتب مقالات كثيرة للسيد التهامى وأصحح التجارب وأعرف عددا من الحكام ، أجيد الإنجليزية وأركب العقاقير بطريقة الطب القديم . وقرأت عن الفلك والطب الحديث ، واسألنى عن الفلاسفة وعن أسرار السياسة ، ووازنت بين الأديان حتى أحببت دينى ، وأنواع الزهور كلها أعرفها بالاسم ، وكل هذه المعارف .. (وقهقه) تزيد رزقى ضيقا .. حتى فكرت فى أن أتغلب على ضيق الرزق بأخذ (شهادة) لأننى بلا شهادات .. غير أنى عجزت عن هذا الشيء ، لماذا ؟! لا أدرى .. (ومط شفتيه وقلب كفيه) .

أحس صلاح النجومى بالدوخة وهما يعبران الصالة عائدين من جديد إلى حجرة الاستقبال . وعندما جلسا أحس الشاب أن الرجل قد أنهك . بدا فى سن الخمسين . ولما خلع نظارته بدت عيناه الزرقاوان الفاتحتان فى ضعف نبات لا يرى الشمس ، وشعره المفروق فى أناقة طبيعية ناشئة من نعومة الشعر نفسه أضفى عليه مسحة جديدة فى نظر الضيف .. وساد صمت يكاد يكون طويلا . كل منهما فيه منصرف إلى أفكاره . قال صلاح بعده بصوت متلجلج : « على كل .. أنا .. أحمل شهادة .. ممكن أن أتوظف بها .. لكن أنت تعرف الآن ما أحب .. أنا .. أملك أرضا .. ممكن أن أعتبر غنيا على شرط أن أنجح فى زراعة ما أملك . لكن هذا غير الواقع . (وضحك) ولما عجزت عن

حرث الريف .. جئت للخيبة .. أحرث المدينة » .

رد البدوى السيد فى صوت باسم :

ـــ لا تيأس .. إن كنت تحب العمل مع الأستاذ التهامى .. معى .. فتأكد أن ذلك ممكن غير أنه لا بد من أن (يطعمك) ضد الطموح .. وضد المطامع .. هناك أربطة يلفونها بقسوة حول حماسة الشاب فإذا بها تتحول إلى مسالمة ومن المسالمة إلى الخضوع ومن الخضوع إلى الذل ..

سكت الحديث وزاد الليل صمتا .. ليس إلا صفير قطارات حلوان فى رحلتها الأخيرة .. والروائح غير المفهومة من قوارير البدوى . وغلالة من دخان التبغ . وصاحب المسكن محتضن ركبته بين يديه يحملق فى هدوء من شبع فكرا . وذكريات قريته لا تزال ماثلة فى ذهن صلاح .. زحفت إليه المخاوف وطوقته . وذكر ليلة مات أبوه وهو يسعى فى الظلام بملابس الحارس فى فرقة التمثيل . وجموع الفلاحين العائدة فى كمد إلى مراقدهم على السطوح . وحزب الفلاحين الذى تحدث عنه البدوى السيد ، واللافتة التى خاف منها ناس مثل كلمة هتاف لم يحدها الصدق لكن شفة نطقت بها . وتذكر صلاح أصوات الجرارات وخوار الثيران .. وأصوات البواخر فى قنال السويس . وليالى الهرب . والحب فى المنصورة . والأساطير التى رسمها خيال شاب يجد المال . وصور القاهرة . وأحس صلاح أن الناس لهم تعريف آخر .. فليس الناس هم الأشباح التى تقع عليهم عيوننا مهما اختلفت بزاتهم ومظاهرهم . إنما الناس فى الحقيقة يتلخصون فى عبارة بسيطة لا يدرى صلاح أين قرأها : « عندما تضع رأسك على المخدة قبل النوم ستعرف بالضبط ما وزنك وما تساوى إذا فكرت فيما أخذت وما أعطيت . وإذا ما حاولت أن تحكم بلا تحيز ـــ لمجرد أنك موجود ـــ ما إذا كنت راغبا حقا فى استئناف الحياة بمطلق إرادتك عند الصباح ؟!. » ..

(للزمن بقية)

نفخ صلاح النجومى كشاب يحمل الهم الحقيقى .. سمعه البدوى ، فتبسم له .. كانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل . فنظر الشاب فى ساعة معصمه واستأذن . ودعه الرجل حتى الباب ، بعد أن اتفق معه على أن يلقاه فى دار المجلة صباحا بصرف النظر عن الأستاذ التهامى . فشكر ذلك له . ثم مضى .

لم تكن هناك مواصلات .. كان عليه أن يعود فى نفس الطريق .. شارع الخليج الممتد المتعرج . ذو القناديل الشحيحة . وأصوات كان يسمعها فى بعض الحجرات القريبة النوافذ من الأرض .. سكن الليل .. أصوات فيها أنين .. كل يؤوله بما يشتهى ..

وفجأة أحس صلاح النجومى بشىء دهش له ، أحس أنه جائع . وتذكر أنه لم يذق طعاما منذ الظهيرة . وفجأة تذكر أن مضيفه لم يذق طعاما فى حضوره ولم يلمح باسم الطعام طوال السهرة . كانوا يدخنون فقط . وأحس أنه جائع حقا فلما وصل إلى ميدان باب الخلق لم يجد شيئا ذا بال . إلا بقايا بلح حامض مع بائع نائم جنب عربة وليس عليها مصباح كالعادة . أخذ منه ما أراد ، ولما دخل شقته الصغيرة لأول مرة يحمل طعامه بين يديه أحس بشعور من التعاطف .. مع من ؟!. تعاطف عام . بحث عن أحد يقبله . ولما لم يجد بحث عن شىء .. لم يجد إلا قطع الأثاث وصورة لأسرته .. لم يحس أن أحدا فيهم يدفعه إلى قبلة .. فدار فى الحجرة والطعام الشحيح موضوع على منضدة . وعند ذلك رأى صورته فى المرآة .. مرآة الصوان . ولسبب لا يدريه قبل صورته فى المرآة ثم ابتسم ..

كأنما أحس الشاب عندما نضجت نفسه بالألم من أجل إنسان أو الإنسان . أن نفسه شىء منفصل عنه وأن الحنين الذى يعانيه نحو أن يقبل الآن أحدا إنما هو اتجاه مبهم متنكر نحو معانقته الإنسان المطلق فى كل مكان من وطنه ..

٦

فى ضحا اليوم التالى كان يسعى نحو دار المجلة .. به شوق عميق غامض نحو أن يفعل شيئا ولو هوى فى جب . أن يفعل شيئا من أجل ناس لا يعرفهم فيهم « محمد الجندى » الذى ظل يحلم طوال الليلة الماضية بكلامه ودعاباته .. وحكاياته عن السكين المسحورة القادرة على قطع رءوس العفاريت والتى كان يحملها فارس الليل . أيام كان صلاح صغيرا ..

لم يمتلىء أنفه فى هذا الضحا برائحة الكيروسين والورق . فقد كان حوش البيت مرشوشا .. وهو واسع وغير مبلط . ودخل .

الأستاذ البدوى على مكتبه مثلما رآه ليلة أمس . لكنه شعر أن دهرا طويلا قد انقضى منذ ليلة البارحة وأن علاقة فى طول العمر كله تربط بينهما . فى يده اليمنى بقية قلم وفى يده اليسرى بقية سيجارة وعلى وجهه بقايا تفكير . وقابله بترحاب سهل لكنه يلمس القلب :

ــ أهلا .. اجلس وكلم نفسك حتى أفرغ لك ..

وانهمك كأن أحدا ليس أمامه . وأخذ الشاب يحملق فيه . جبين ذكى ووجه يميل اليوم إلى الشحوب . والذقن محلوق فى أناقة . والعمل يدل على أنه مستعجل . ثم انتفض ودخل حيث كان الأستاذ التهامى هناك فى الداخل . وطال بقاؤه . وأحس صلاح بالقلق فأخذ يتسلى بأفكاره كأنها أوراق اللعب . حتى سمع وقع خطوات عائدة إليه .

جلس البدوى خلف المكتب وقال لصلاح وهو يميل عليه :

ـــ ما رأيك يا عم ؟ لقد قبل الأستاذ أن تكون معنا هنا .. بلا مرتب طبعا .. تحت التمرين .

فضحك الشاب بلا قصد . فهو يفهم منذ أمس من هو صاحب المجلة . لكن الرجل عاجله بجد وابتسامة صادقة :

ـــ لقد صارحتك أمس فكيف أغشك اليوم .. افهم .. ستتمرن على أشياء كثيرة منها الصحافة .. ومعاملة الناس كذلك .. وستكتب .. وتصحح تجارب .. وربما نظفت حجرتك بنفسك .. ومن هذا الباب دخل الناجحون والفاشلون معا .. وكلنا فى هذا العالم أسماء مكتوبة فى « قائمة انتظار » .. وعلى كل .. لك رأيك .. فأنت لن تأخذ نقودا .. و .. أنا أظن أنها ليست مهمة جدا . أنا أتكلم عن نفسى .. وفى دار الكتب القريبة منا وظائف لمثلك إذا لم ترغب فى هذا العمل .. لكننى فهمت ليلة أمس ماذا تريد ..

وسكت .. ونظر صلاح إلى الأرض ولم يكن هناك ما يسمع إلا صوت الرجل وهو ينفخ الهواء من أنفه . أخرج الشاب سجايره وقدمها إليه وأشعل كل سيجارة لم يلبث أن قال الرجل بعدها :

ـــ ما رأيك ؟.. إنه فى انتظارك فى الداخل ..

ـــ أنا ؟!..

ـــ نعم .. لكى يكلمك بنفسه .

وقاده زميله نحو الحجرة . كان يشعر وهو يسعى إلى هناك أنه سيشهد أعظم تجربة فى حياته . ودخل .

ملأ أنفه تواعبق سيجار فى فم الأستاذ كان فى طول أنفه مرتين ، وأشار إليه بالجلوس ففعل . وظل كل منهما ينظر إلى الآخر حتى انهزمت نظرات صلاح أمام عينين ضيقتين مائجتين بالشرود :

ـــ عرفت أخيرا أنك ترى فى المجلة موظفا واحدا .. والفراش مريض ..

كانت جيمه معطشة وقافه مقعرة وسينه مهموسة .. وتذكر صلاح طريقة نطقه لكلمة (كلاسيك) وتلخيصه إياها . لكنه فى مجموعه شىء متوثب يحمل على التقدير أو الخوف .. واستطرد الأستاذ :

ـــ لقد عملت وحدى أشياء عظيمة .. لا تنس أن الوحدانية من صفات الله .. أحيانا تكون كمالا .. وأنا هنا مثل معصرة الزيت .. هل تعرفها ؟

هز صلاح رأسه .. واستطرد الرجل :

ـــ أنا هنا أدرب العفاريت .. وأعصر الزيت بكفى بلا معصرة .. ربما كنت قاسيا لكن قسوة الفأس هى التى تشكل التمثال .. فعليك أن تتحمل .. ومن يدرى ؟ ربما جاء يوم تقول فيه إن لقائى كان نقطة تحول فى حياتك .

ـــ شكرا .. أ .. أرجو ذلك ..

ـــ شكرا .. ممكن أن تذهب وتبدأ عملك مع زميلك .. فى حفظ الله ..

خرج صلاح من الحجرة إلى حجرة ثم إلى الصالة ثم إلى حجرة .. إلى حيث كان يجلس البدوى .. علبة السجاير أمامه وهو يدخن منها فى هدوء .. وعاد صلاح فجلس فى حالة غير مفهومة من الشعور . لكنه أحس أن شيئا هاما قد وقع على كل حال ربما كان له وربما كان عليه ..

وابتسم البدوى فى تودد .. ونظراته العطوفة من وراء النظارة توحى الآن بطفولة :

ـــ كيف وجدت الحال ؟

ـــ كما وصفته لى ..

وسكت .. تذكر أشياء غريبة .. تذكر أنه شاب ضال .. وسر ذلك أن الواقع غير مقنع له .. ويجد المال ولكنه يكره أن يكون أداة يستمر بها التنفس

.. يعنى الحياة . وهو كمن يعانى مرضا غريبا يقول الناس عنه إنه عادى . غير أنه يشعر كأن العصر محتاج إليه (شخصيا) وهو إن لم يفعل شيئا بقيت كل الأعمال فيه مثل رسائل بلا عناوين تتكدس وتضيع .

وطال السكوت وكاد يضحك من نفسه .. فهتف فى شبه صرخة موجها سؤاله لزميله الذى أحبه جدا فى هذه اللحظة :

ـــ هل الأعمال التافهة يمكن أن تكون بداية فى حياة رجل عظيم ؟!

انتفض البدوى وعض شفته وأخذه اهتمام وعطف .. وأحس صلاح أن شيئا غير مقصود ـــ كأنه همس داخلى ـــ أفلت منه فخجل ، احمر وجه الشاب الجميل فانبعثت شفقة جديدة فى قلب البدوى .. كانت التعاسة المشتركة تجمعهما .. وإن اختلف النوع .. وشعر الرجل أنه فى حاجة إلى نفس يأنس لها وأحس الشاب أنه فى حاجة إلى من يرشده .

وكان صلاح بطبعه مفتونا بحياة طائفتين من الناس ، هما فى الحقيقة أطراف كل مجتمع فى الدنيا : « البسطاء والعظماء » .. كان يحس أن الإنسانية بصفائها ورقتها فى البسطاء إن فهمناهم . وكان يحس أن الإنسانية حين تتحول إلى شىء دقيق جدا وعظيم جدا هو عصا المايسترو .. تكون فى العظماء .

فالعصا التى تقود خطا العميان (فى أصغر صورة) هى نفس العصا التى تقود الجموع فى التاريخ فى يد العظماء (فى أكبر صورة) ..

وأفاق صلاح على رد زميله بتعطف وخوف عليه :

ـــ لا تستسخف سؤالك .. أكثر عظماء الدنيا اشتغلوا بأعمال تافهة فى أول الأمر ..

رد كأنه يدافع عن نفسه لكن فى خجل كثير ..

ـــ أعرف ذلك .. أعرف جان جاك روسو الذى علق تولستوى صورته

على صدره .. وغيره .. من الـ ..

رد البدوى فى همس خافت جدا وهو يختلس النظر نحو الباب الذى ربما يظهر فيه صاحب المجلة :

ــ لا تدافع عن نفسك هكذا .. أنا شخصيا أحس نفس إحساسك .. وأكثر .. أنا عظيم فعلا ..

همس كأنه يختلسها من نفسه ..

فغر صلاح فمه واستطرد البدوى :

ــ غدا ترى كل ما يخطه قلمى .. تراه بنفسك ..

وعندئذ سمعا وقع أقدام آتية من الداخل متقاربة مما يدل على السرعة وقصر القامة . وكان الأستاذ خارجا .. وعندما وصل إزاءهما حياهما برفع يده قليلا ..

نهض الرجلان ، وامتلأ أنفاهما برائحة التبغ .. ثم سمعا فى الحوش محرك سيارة .. فعرفا أنه قد انصرف ..

جلسا يتنهدان معا كأنهما وضعا حملا مشتركا . ومط البدوى شفته ثم استعادها ومصمص . ونفخ من أنفه ، وسأل :

ــ كم الساعة الآن ؟

ــ الواحدة بعد الظهر ..

ــ حسن .. يمكن أن تأتى معى الآن لنذهب إلى المطبعة .. وقبل ذلك سنمر على الساعاتى لآخذ ساعتى التى تصلح .. وفى المطبعة أريك ماذا ستعمل وكيف .. حيث تشرف على التدبيس والتجليد وتكون حلقة اتصال بين المجلة والمطبعة وتجرى وتعرف سر المهنة . فكل مهنة لكى تعرف تعاشر ولا توصف . وعما قريب ستكون « ولد » .. وربما لمعت .. والله أعلم ..

تعال .. نتوكل ..

كان خفيف الظل فى هذه اللحظات .. البدوى السيد هذا .. خطف عصاه القصيرة الأنيقة ووضعها تحت إبطه .. وتحت إبطه الآخر صلاح .. أقفلا باب المجلة وسارا يسعيان .. كانت عقود بواكى شارع محمد على على مقربة من دار الكتب تشيع فى الجو الحار برودة منعشة مثل رائحة حقول سقاها الماء . و لم يدر صلاح كيف بدا زميله خفيف الحركة هكذا كان يمشى بسرعة مع أنه أقصر بكثير من الشاب .. ويتنبأ بما سيجرى له : « ستكون شيئا .. عليك فقط ألا تتضايق .. انتظر .. هنا دكان الساعاتى لآخذ ساعتى .. » .

ودخلا معا .. وأخذ الساعة ثم أخذ يفتش فى جيوبه ، ومن نظرته أحس صلاح أنه لا نقود معه ، فدفع له . ثم مشيا دون أن يعلق الرجل . وبعد قليل قال الرجل فى دعابة لكن بصوت مهموم :

ـــ أستاذ صلاح .. (هى هى هى) أنا لا زلت مصمما على أنهم لو سمونى السيد البدوى بدل البدوى السيد لربما تغير الموقف .. لا تضحك .. فبعض الخرافات لا يتخلص منها المفكرون ..

وظل يشهق بالضحك وحده .. فى اللحظات التى سبح فيها صلاح فى نشوة من كلمة « أستاذ » ومن إحساس ليس فيه غبن ولا محاباة ولا تحريف بعذوبة هذه الصحبة أيا كانت .. ثم ما لبث صلاح أن ضحك وحده هو الآخر فنظر إليه الرجل يسأله فقال له :

ـــ كلما ذكرت ليلة وفاة أبى ضحكت . (وقص عليه القصة) لكن قمة الأسى والسرور تكون عندما أذكر أن ثياب أحد حراس فرقة التمثيل معلقة الآن فى صوان فى حجرتى فى القرية .. كم أود أن أحضرها وأسلمها إلى أصحابها ..

ــ نذهب معا .. نحن الآن على مقربة من المطبعة لكن لا ينبغى أن نذهب قبل تناول الغداء فقد يطول بك العمل ..

كان البدوى ناحية المحلات وصلاح إلى الناحية الأخرى .. فانحرف البدوى به فجأة إلى باب مطعم .. رائحة الشواء تملؤه وفيه قلة من الناس . وعلى المناضد مفارش بيضاء ودوارق ماء مثلج وأزهار .

قصدا إلى مائدة فى النهاية فى ركن مظلم . وجلس البدوى بأناقة وشهية وصفق وطلب شواء لاثنين ..

ولم يعد صلاح بعد أن جلس فى المكان برهة يتأمل فيه شيئا إلا هذه الظاهرة . ظاهرة أن يفعل زميله كل شىء بطمأنينة هكذا حتى ولو كان صلاح يدفع ، لكنه عندما أتى الشواء وأخذا يأكلان شعر صلاح بسعادة لا توصف حين رأى زميله يأكل بشهية وجوع وأمان .

وعلى المائدة قال له شعرا بعضه مروى وبعضه من تأليفه . ثم بعض النكت . وعرج على تاريخ حياته مرة أخرى . وحكى له عن أسرار يعرفها بحكم مهنته من عيوب المشهورين . وحدثه عن الزوجة التى يتمناها . حتى سأله صلاح :

ــ هل يعطيك الأستاذ التهامى مرتبا يكفيك يا صديقى ؟!

فرد ضاحكا :

ــ إذا بعنا قبضنا . وإذا لم نبع قُبضنا .. يعنى متنا ..

ــ ولماذا لم تتحول إلى مجلة أخرى ؟..

قال بعد صمت كاد يكون طويلا :

ــ عندما يصبح (الفكر) تجارة تصبح الأسواق كلها متساوية .

ــ ماذا تعنى ؟!

ـــ أعنى أن التجارة فى (الفكر) مثل التجارة فى (الإنسان) . كل أسواق الرقيق سواء وليس هناك نخاس مثالى ونخاس منحط .. لذلك فلأبق حيث أنا . والأستاذ التهامى عرفناه .. (وصمت) .. ومع ذلك فلا بد أن تتغير الدنيا ..

ـــ كنت فى الريف أشعر أن كل شىء فى المدينة يوزن بميزان أدق ، فلما رأيتك عجبت . وقلت فى نفسى فى لحظة خوف .. إننى جئت من خيبتى (أحرث المدينة) .. وسهرت أسأل نفسى : هل لو أنى أملك مجلة أعمل ما يعمله هؤلاء ؟

ـــ ربما لا .. وأنا أشعر أن هذه الفكرة تراودك .. لكن حرام أن تفعل ذلك .. إن وجهك يدل على أنك كثير الأحلام وجرىء والضحايا من هذا النوع أكثر من غيره .. عليك الآن أن تتعلم . تعلم فقط ..

الأطباق أمامهم ليست خالية تماما لكنهما كفا عن الأكل .. والبدوى بعد الشبع بدا أكثر وداعة .. يدخن من علبة صلاح بطريقته المألوفة .. ببساطة لا يذكر معها كلمة (ملكية) . وأحس صلاح نحوه بأبوة .. إحساس الكبير نحو الصغير لا العكس . ورويدا رويدا ولت بقية الكلفة فزاد وزن الصداقة . ودفع صلاح . ثم اتجها إلى المطبعة .

* * *

صحف هذه الأيام تتكلم كثيرا عن حزب الفلاح لكن بشىء من السخرية ..

وجاء ذكره فى قرية النجومى فى مجلس ضم محمد الجندى فسمع من يقول إنهم يدعون أن أعضاء هذا الحزب سيوزعون على الفلاحين أحذية وسراويل . فقال الرجل العجوز : « المعقول أن يدعوا أنهم سيوزعون على أولادكم أقلاما .. المشكلة فى وجود القلم لا فى شىء آخر » .. ثم سرح كأنما

يسأل نفسه : « يا ترى أين أرضك يا سى صلاح ؟ » .. وتنهد . وقال أحد من حوله ردا على تنهده : أنت بيننا مثل الحكيم لقمان يا عم محمد لكن حكمتك أكثر من فقرك . وفقرك أكثر من حكمتك » .. وضحك الباقون .. ورد الرجل وهو واضع كفيه على خديه كمن يرتل القرآن ..

رد بحماسة وهو يهز جسمه :

— أصلكم بهايم .. اليد التى تمسك القلم تحسن كل شىء فى الدنيا ..

رد فتى ضاحك :

— حتى مسك الفأس يا عم محمد ؟

— حتى مسك الفأس يا غبى .. هل هناك أسهل من تركيب حدوة لحمار ؟..

تركيبة البيطرى لها غير تركيبة الجاهل الذى نراه عندنا كل سوق .. والفرق .. هو .. القلم ..

— ما أخبار صلاح النجومى يا عم محمد ؟

وأحس الرجل كأن أحدا خدش إحساسه نحو ابنه الوحيد العزيز ، واستشعر حرارة وهو يدافع عنه أمام هذا السؤال الذى يبدو بريئا وهو فى الحقيقة خبيث . إنهم يعتبرونه فاشلا . وعندئذ أطرق إلى الأرض كأنه يفتش فيها بعينيه الضعيفتين عن شىء صغير ، ثم استعان بخياله القديم أيام كان قادرا على أن يجعل « الفأر جملا » . كما قال عنه الريفيون وأخذ يتحدث عن صلاح بصوت خافت فيه نبرة أسى وشىء من الخشوع . قريب من سرد ذكرى حب أو ترتيل شىء مقدس :

« هو فى رحاب (الطاهرة) ، قالوا إنه ساكن قريبا منها » .

حاول أن يلمس قبل كل شىء وتر العاطفة ثم استطرد :

— وهو يتعلم مهنة لا نعرفها ولا نفهمها . أحسن من الهندسة والطب . أكون كذابا لو ادعيت أنه سيعود مهندس رى أو طبيب انكلستوما ، أو يبنى

لنا كوبرى . لكنه سيعود بمهنة جديدة .. سيكتب لكم فى الجرايد وكل شكوى تحتها اسم صاحبها وصورته . ويجرى وراءها عند الحكومة . وقد حلف ألا يدخل البلد إلا وهو رجل عظيم . إنه لم يبع أرضه كما سمعت ولكنه يأخذ إيجارها ، من مدة سنة لم يشرف ، لو كانت القلوب توزن مثل القطن والتبن ؟!. هو فى رحاب « الطاهرة » . ورأيته فى المنام على فرس أبيض ، والفلاحون من حوله فى ملابس من القصب » .

وفجأة انبعث ضحك . صفق الشبان وضربوا الأرض بأرجلهم وقهقه الكبار . وحملق الجندى فيهم بذهول يتساءل عن السبب ثم شتمهم : « الجهل نعمة » . وقال شاب بقلنسوة من الكورشيه : « حد لاقى يمصه يا عم محمد ؟.. هو القصب بيتلبس ؟! » ..

وعادت ضجة الضحك لوقع النكتة فعاد الرجل يشتم « جهلة .. أيادى لم تمسك القلم طول عمرها .. القصب الذى لبسه سى صلاح ليلة .. » .

ساد ضجيج جديد وضحك .. وتحول المجلس إلى سويقة ..

وقال ذو القلنسوة الكروشيه الفرح بشبابه من جديد :

« آه .. عرفنا يا عم محمد . أصلنا كنا سرحنا فى النوع المخصص للمص » .

قال « محمد الجندى » وهو ينهض من بينهم وينفض التراب عن جلبابه من الخلف تلك النكتة الشهيرة الشائعة فى الريف والتى توحى بتهمة الجهل : « تقرأ زبورك عند مين يا داود ؟ » .

* * *

لم يتغير شيء كثير فى حياة صلاح الوظيفية إلا .. أن مر عام وأكثر وكان البدوى طواله شبه عالة عليه . لكن صلاح يسهر عنده معظم الليالى حيث يقضيان معظم الليل فى القراءة أو الحديث . وكان زميله مكشوف التجربة . حتى أدق أسراره لم يكن عنده مانع من أن يقصها عليه وربما على غيره . بهدوء

المطمئن . كرجل يحدث نفسه لا أكثر ولا أقل . حتى حوادث الطلبة فى المدارس الداخلية أيام كان فيها . لم يجد حرجا فى أن يقول إن جمال وجهه بينهم كان مصيبة عليه لولا ستر الله . وينقد له أدب أعظم أديب وأكبر شاعر ، وكان بحكم تربيته يتقن الإنجليزية فسهر يقرأ بها مع صلاح وتحول بيته البادى القماءة والذى يمثل برج بابل إلى مدرسة بالنسبة لصلاح . وكانا يترجمان معا قصصا للمجلة وبعض أحاديث وموضوعات وطرائف . ورآه يكتب شعرا باسم مستعار وينشره فى المجلة ويسمع مديح الأشعار لذلك الشاعر المجهول . ورآه يكتب للأستاذ مقاله الافتتاحى كثيرا من الأحيان خصوصا إذا ما شاء أن يهاجم أحدا من كبار السياسيين لأمر يريده لنفسه شخصيا . وكان الأستاذ البدوى بارعا فى مثل ذلك . ويأخذ صلاح فى الموازنة بين وجهه الهادئ الخالى من علامات الادعاء وبين معارفه المتنوعة العجيبة .. ويده . التى هى بلا مال ولا شهادة ..

وخلت حياة البدوى طوال هذا العام من التذمر المادى وقلت طلباته من صاحب المجلة الذى أدرك بفطنة أمثاله أن صلاح النجومى سيكون مصدر رخاء لزميله . ولذلك رحب بصلاح . على أنه كسب من ورائه الكثير . فقد حمل ذات يوم الأكداس المربوطة من المجلة ورصها على عربة لأنه لم يكن معهم نقود للعربجى . فحل الرجلان محله . وضحك البدوى حين كبا الحمار فى الطريق وكانت عصاه تحت إبطه . وعجز الحمار عن الحركة بعدها لأن صاحبه فيما يبدو كان يأكل طعام الحمار . وصخب العربجى وشتم لكن البدوى أبدى اقتراحا وسارع بتنفيذه : « تعال يا صلاح . معى .. المكان أصبح قريبا . لندفع هذه العربة بحمولتها حتى تصل وليسحب الرجل حماره » .

وكان المشهد مضحكا . لكن حماسة الرجل وشعلة شباب صاحبه جعلهما يفعلان ذلك ، وسارا يتضاحكان . وأخذ البدوى يهمس لزميله فى الليل فى الشارع المؤدى إلى المخزن : « محررون وحمير .. زق زق .. ومع ذلك لا نأخذ أجر هذا ولا ذاك .. هيلا هوب .. شد حيلك يا ابن النجومى .. لنساهم بعرقنا المقدس فى بناء عمل مقدس هو الدور الأعلى فى عمارة التهامى .. هيلا هوب .. الضحك والبكاء يقطعان النفس فلا تضحك ولا تبك .. زق .. زق .. العمارة تطل على المقياس .. على مقربة من قلعة المماليك القديمة . هيلا هوب .. آاااه .. فى عين الحمار نظرة عطف .. انظر ممكن أن تراها .. لكن العربجى .. لا .. وصلنا .. اضحك كما تريد أو ابك كما تريد .. » .

* * *

وأحس صلاح بثقل وزنه بعد هذه المدة وكان يدخل إلى دار الكتب ليقرأ أو يستعير ويشعر أنه مرتاح . وبدأ يترجم .. كان فى مدرسة خاصة مع هذا الرجل المنسى .. مثل الصبار المصرى والرخام الإيطالى فى صالة شقته تحت مسقط النور . وكلما مرت الأيام زادت المودة . ولم يعد أحدهما يفكر فى المادة كأنما أصبح كل شيء ملكا لهما بالتساوى .. روح كل منهما أخذت من الآخر شطرها وأعطى الثانى من روحه شطرا ، وعندما كان البدوى يرسم وصلاح إلى جواره كان يحدثه عن الرسامين ، وعندما كان يكتب كان يحاكى ويبتكر .. وكان صوته عذبا إذا غنى . فكاد يلحن الموشحات الأندلسية وهو يقرؤها من ذاكرته ..

يتكلم عن كل شيء إلا عن المرأة . أما إذا جاء ذكرها فهو يتكلم عنها بما يدل على قلة التجربة .

وبعد السهرات كان صلاح يعود إلى مسكنه .. وأحيانا كان يبيت . وفى

الليالى التى يبيتها ما كانا ينامان حتى الفجر . لا تفرغ الأحاديث . لكن أحاديث السياسة كانت أقل نسبة . أما عندما يؤثر صلاح أن يعود إلي بيته فإنه كان يفعل بعدما تدخل عربات الترام المخزن وتقف خطوط الأوتوبيس القليلة . فيقطع شارع الخليج . يتعرج به ويتلوى . والقناديل شحيحة . وصلاح يستعذب ذلك . سائرا يلقى فكره إلى بعيد . إلى الناس فى القرية .. وإلى ناس مثلهم فى المدينة .. ويحلم .. بأشياء لا تحصى حتى الحب .. لقد نسى. حتى الشعر المكسور والشعر الأصفر . على النهر ، وكوبرى طلخا . منذ أكثر من ثلاث سنوات .

وعندئذ تنهد وخطف بصره نافذة منخفضة يمر بجانبها الآن . والنور ينطفئ فيها حين حاذاها مع ومضة من ضحكة نسوية كأنها مخمورة ..

تنهد مرة أخرى .. وهمس كأنه يحدث شريط الترام اللامع الممدود فى شارع الخليج :

ـــ آه ، لقد كبرت ..

٧

« حريق على الربوة » .. إذن فلنجرب . ماذا سيحدث .. الليل يشملنى الآن فى مسكنى وأنا وحدى .. شارع حسن الأكبر ينحدر .. عدت من عند صديقى ماشيا والسماء تهدى رذاذا حملته على رأسى .. « حريق على الربوة » .. الفلاحون يحملون مثل هذا الرذاذ على رءوسهم وهم يعملون .. يخافون على قلنسواتهم فيضعونها فى جيوبهم إذا كانوا شبابا . يتحركون بسرعة من أجل الدفء .. أما قصة « حريق على الربوة » فكانت فى قرية من قرى الدقهلية .. ليلة اشتعلت فيها نار كأنها مجوسية منع الناس من إطفائها . كانت مرتفعة .. تأكل شيئا هشا بشهية حادة .. بيوت الطين بدت كأنها حمراء . فى لون دموى تجمعت تحته نساء فى جلاليب سوداء طويلة .. و لم يستطع أحد أن يتكلم .. كان هناك شاب واحد يضحك والحريق على الربوة . احترق حمام كثير أبيض اللون قبل أن يسقط .. حمام (دنشواى) صادته نار بندقية ، أما هنا فقد صادته نار مجوسية .. والغربان لم تحترق ليلتها .. أزواجها السوداء تهيم فى سماء القرية . والتليفون فى دوار العمدة يطلب المركز فى إهمال مقصود .. (آلو) ويعقبها نعاس ..

وذهب كثير من الأطفال الذين استيقظوا على الجلبة ليبولوا من الخوف بجوار الجدران أو حظائر الماشية . وكان بول كثير منهم مخلوطا بالدم . والحريق على الربوة .. وجدران المستشفى المتنقل المجدولة من غاب حمصته الشمس كان لذيذ الطعم والنار تأكل .. والحادثة تقيد ضد مجهول . وبال الأطفال فى

القنوات منذ صباح اليوم التالى كأنهم يحتجون على الحريق بأن ينشروا المرض بين أنفسهم .. لأن المستشفى كان لعلاج البلهارسيا والإنكلستوما ..

من الذى أشعل النار ؟!.

. . . .

. . . .

. . . .

* * *

و لم ينم صلاح بقية الليل بعد أن كتب هذا .. رقد .. ثم نهض فأشعل النور ونظر فى مرآة الصوان . وقبل نفسه فيها كعادته حين يثور فرحا أو حزنا . أوى إلى الفراش من جديد . مطر فى الخارج وقطة تموء . وصوت ميزاب يدردب فى الشارع .. همس لنفسه :

« الآن هم يحصدون البطاطس .. إنها فى حقول النجومى الآن . وناس من فلاحيهم يوقدون النار حولها وهم ساهرون .. والآن يستدفىء طه أخى بالصوف والجمر والجسد والشراب الحار . ويتمطى ويسحب الساعة من تحت المخدة . وربما كان مستغرقا بعد جهد . وأنا لا أذوق النوم . لماذا لم أكن مثله ؟! هل قساة القلوب يتعذبون ؟!. القسوة قشور على القلب فى صلابة الحوافر .. إنهم يدوسون كل شىء حتى بواسطة القلوب كأنها سنابك خيل .. ذلكم هم القساة .. ما الذى تفضله إذا خيرت بين أن تدوس وأن تداس !؟.. أنا أفضل البحث عن الدافع إلى مثل هذا الموقف .. عندنا فى القرية فطير ولحم كثير ومال ونساء فماذا أضجرنى ؟!.

وكف عن الهمس . وألقى بسمعه إلى دردبة الميزاب . وصوت المطر . ألفا له لحنا جعله يسترخى .. نام .. و لم يحلم .. وكفت القطة عن المواء من برد الليلة ..

(للزمن بقية)

ليس هذا معقولا .. نعم إنهما الآن فى شبه حلم .. البدوى وصلاح النجومى الجالسان فى دار المجلة الآن معا يدخنان ويثرثران لأنهما فى أول الشهر والمجلة قد صدرت ـــ ها هما يريان الفراش الذى عاد من مرضه يمشى أمام فتاة فى حدود الثلاثين .. عليها « تايور » من الصوف متوسط القيمة لكنه أنيق المظهر .

لم يكن فى عينيها السريعتى الحركة الشديدتى السواد تردد . وفى صوتها رنة حيوية . هى تميل إلى الطول ولذلك تلبس حذاء بلا كعب .. نصف جسمها الأعلى يميل إلى الأمام نوعا إذا كانت ماشية . أنفها قصير جذاب مما جعل شفتها العليا ذات اتساع ملحوظ .. شعرها غير مرجل بعناية .. قد يكون هذا دأبها وقد يكون الجو عاصفا ولا مشط معها .. لكنها تحمل حقيبة يد كبيرة نوعا خالية من الأناقة. كل أناقتها فى حاجبيها ومعظم جاذبيتها فى عينيها ..

وقال الفراش : الست تريد أحدا هنا ..

نظر الرجل والشاب ونهضا واقفين .. وقدما كرسيين .. ابتسمت وهى تهز رأسها فى شكر وعدم اهتمام بهذه الفرائض .. ثم جلست وأخذت فورا فى فتح حقيبتها وهى تتمتم بالمقطع الأول من كلمة لم تقلها بعد :

« آ .. آ .. آ .. الأستاذ .. » وعندئذ كانت النسخة الجديدة من المجلة أخرجت من الحقيبة . نظر صلاح إلى البدوى والبدوى إلى صلاح لكن بسرعة لم تكد تلحظها الفتاة لأنها لم تكن بعد قد رفعت إليهما بصرها .. ثم طوت المجلة فى يدها ووضعت الحقيبة على كرسى مجاور وحملقت فى الرجلين .. وعلى ثغرها ابتسامة ألفة .. كأنها لقيتهما من قبل وقالت :

ـــ ممكن أن أقابل الأستاذ التهامى ؟!

أحس كلا الرجلين بالضآلة .. لأن توقعهما قد خاب ، ولأنه لم يحدث

كثيرا أن جاء إليه هنا أحد مثل هذه . وتكلم البدوى بوقار متزايد بعد أن نفخ الهواء من أنفه فى الوقت الذى كان صلاح فيه لا يزال ناظرا إليها :

ــ ممكن .. اتركى اسمك أو اطلبيه غدا أو بعد غد فهو غائب عن القاهرة .

أخذت الفتاة تحول المجلة إلى أسطوانة قطرها يضيق شيئا فشيئا ثم استطردت :

ــ طيب .. ممكن أن أكلم من ينوب عنه ..

سارع البدوى :

ــ أنا تفضلى ..

قالت بصراحة وتدفق وكأن شيئا لا يهمها فى الدنيا :

ــ لم أقرأ هذه المجلة من قبل . لكننى كنت عائدة من السفر فاشتريت هذا العدد فوجدتها تقول ما يقال عادة فى وقتنا الحاضر خصوصا بعد أن انتهت الحرب .. وتحولت المشاكل العالمية إلى مشاكل إقليمية ..

لم يفعل الرجلان شيئا عندما سمعا بدء حديثها إلا أن أشعل كل سيجارة وأخذ يجذب منها أنفاسا بعصبية .. كانا يجذبان النفس معا وينفثان معا كحركة مرتبة .. أما هى فقد فتحت المجلة وصارت تتصفح ورقة ورقة لأنها تفتش عن شيء معين .. واستطردت وهى تأتى بنفس الحركة :

ــ أكثر ما يثير ضيقى هو أننى أعرف مقدما ماذا يراد أن يقال إذا شرعت فى قراءة .. وعندئذ تصبح القراءة عملا مملا .. أو مجرد دفع عجلات القطار أو السيارة للمسافرين .. تعجيل بمرور زمن ثقيل .

قال البدوى فى برود شديد :

ــ إذن أنت تعجبين بالأشياء المثيرة ..

سارعت الفتاة بالرد وبلا أدنى تذمر :

ـــ لا .. لا .. مطلقا .. معذرة إن لم أبين قصدى .. كل ما أحبه أن أجد أى شىء غير متوقع .. الجديد كل يوم لا يأتى .. إلا فى المعارك الانتخابية والحزبية وأخبار الفيضانات والمغامرات .. (وضحكت) .

رد صلاح فى هذه المرة :

ـــ أنت رائعة ..

حملقت فيه بنظرة فتاة همت أن تقول شيئا ثم عدلت .. وأخيرا زمت شفتيها وهزت رأسها . وضحكت وطوحت بالضحكة رأسها وجذعها . واستطردت وصوتها أقل ارتفاعا .. أقرب إلى الهمس .. كأنها كبيرة تؤنب صغيرا على فعلة غير محبوبة ..

ـــ أنتم معذورون .. لعلكم لم تشاهدوا بعد هذا النوع منا .. لأنى قلت رأيى بحرية .. تأخذكم هذه الدهشة ؟ عجيبة ..

قال البدوى بكل ما فيه من تفلسف ووقار وعلى فمه ضحكة استخفاف لا تكاد تدرك :

ـــ هل كنت تريدين صاحب المجلة من أجل هذا الإطراء العظيم ؟!

صمتت قليلا وعلت وجهها سحابة هم خفيفة كمن خاب أمله فى شىء ثم قالت :

ـــ اسم الأستاذ ؟ واسم الأستاذ ؟

قال البدوى بنفس الهدوء :

ـــ اسمى .. وأشغل وظيفة نائب رئيس التحرير والأستاذ اسمه .. وهو محرر بين عدد كبير من المحررين ليس موجودا هنا ..

ـــ عظيم ..

وصمت طويل وإطراق نحو الأرض أميل إلى الهدوء كأنما الحركة فى كل

أعضائها ونظراتها ـــ وحركة يديها عند الكلام استرخت كلها لسبب هام . ثم أعلنت إفاقتها بهزة من رأسها وعادت إليها اليقظة الحادة . التى تحول أحيانا سمرة الوجه إلى شبه لون لوحته الشمس .. وعادت تتصفح أوراق المجلة وفجأة قرأت العنوان « حريق على الربوة » ونظرت إليهما .. بان القلق فى العيون .. رجل فى الخامسة والأربعين فى موقف المعلم وشاب فى الحادية والعشرين أو يزيد كل منهما يتوقع شيئا كان من الغموض بحيث لا يمكن التنبؤ به . وتمنى صلاح لو أنه كان غائبا هذا اليوم .. قالت الفتاة :

ـــ من صاحب هذا المقال الذى يحمل توقيعا مستعارا ؟..

سارع صلاح بكل ما فيه قائلا :

ـــ لا يعرف هذا أحد هنا .. سر هذا عند الله وصاحب المجلة .

وارتاح البدوى لما حدث .. لأنه وزن الأمر .. كان يعرف أن هذا الذى كتب شيء جميل .. روح شابة جديدة .. وهو الذى بخس حقه فى كل شيء حتى الثناء .. لكن البدوى غلب فى نفسه هذه النزعة إذ طالما غلب أقوى منها وسأل :

ـــ هل لك رأى فيه ؟

أخذت تتكلم وهى تهز جذعها وبصوت عذب ولغة نادرة :

ـــ لم أقرأ مثل هذا .. إنه صادق وجديد .. وتكلم فى شيء يهمنا .. وهو طبعا ليس بقلم صاحب المجلة لأننى عرفت روحه من قبل ..

كان صلاح يود بكل ما فيه أن يبوح البدوى لها باسمه . وكان البدوى فى هذه اللحظة مهموما بما هو أغلى .. وهو تأكيد وجوده أمامها أولا .. وعاد إلى ذهن صلاح موقف بعض معلمى الموسيقى الذين قرأ عنهم .. حين كان تلاميذهم يجيدون عزف المقطوعة أمام آبائهم فى القصور فيتحول إعجاب

صاحب القصر من المعلم إلى الابن ، فبعد أن يفرغ التلميذ أو التلميذة من العزف نرى المعلم يشرع فورا فى إعادة ذلك على مسمع من الأب وهو لن يأتى بجديد إلا أن يذكره (بالأصل) ..

بذلك فإن الأستاذ البدوى شرع يتحدث إلى الفتاة عن معلومات قيمة . ولما رآها قادرة على فهمها ارتفع إلى معلومات أقيم . ولما سايرته ارتفع إلى ما لا يمكن فهمه فأخذت تضحك .. بمرح من الصبا الأول . ثم قالت وهى تنظر إلى ساعتها :

ــ أوه .. كم كنت أود ألا أفارقكم .. لكن ..

عينا صلاح تنظران إليها فى توسل .. وهمس راجيا أن تجلس قليلا .. ودخل الفراش بصينية من الخارج عليها ثلاثة فناجيل من السحلب .. تحية غير عادية ..

وشعرت الفتاة بما يعانيه الشاب فركزت عليه اهتمامها .. وكانت فى حقيقة الأمر مأخوذة بمظهره الجذاب .. ونظرة الترفع المائجة فى عينيه ..

كانت رائحة الشراب تتضوع فى المكان مختلطة فى هذه اللحظة بشذى عطر .. إذ فتحت حقيبة يدها .. وأشعل البدوى سيجارة فدخل عنصر ثالث من الروائح .. على أن هناك عنصرا رابعا كان هو قلب الشاب . الذى لم تتح له ظروف قلقه منذ قدومه إلى القاهرة أن يغامر فى الحب مغامرة حقيقية .. شوق يعرفه القلب الشاب يكاد أن يثبتها على الكرسى لئلا تقوم ، وإعجاب بالطرف الثانى من المألوف عنده .. ففى قرية النجومى رجال ونساء لا يعرفون الحرية وها هو ذا يرى أمامه فتاة تستطيع أن تقول أى شىء لمن تريد . ولا شك أنها بالتالى « تفعل » ..

وكانت نظرات البدوى إليها لا تخلو من إعجاب وعدم رضا .. أما صلاح

فقد أحس بما يحس به السباح حين يرى البحر بعد أن أمضى فى الصحراء عامين . يريد أن يرتمى ولو بملابسه .

وقطعت هذه الأفكار نبرة فيها شبه عتاب من البدوى :

ـــ كل هذا ولا نعرف اسم الآنسة ؟!

ـــ ها .. لكم حق .. انتظروا حتى أفرغ من الفنجان .. ولن أنصرف قبل أن أقول اسمى ..

وبعد رشفتين رقيقتين كقبل مستعجلة بصوت خفى قالت :

ـــ أنا السيدة أسرار ..

هتف صلاح كأنه حافظ شيئا يكمله :

ـــ اسم على مسمى ..

فتحت فيه عينها المهلكتين :

ـــ ماذا رأيت منى يا أستاذ صلاح ؟.. (وظلت تشهق) ..

وظللت ربكة .. ورمى نحوها الشاب بكل إمكانيات نفسه ، لكن فى صمت .. وأحست هى ذلك ، على أنها من النوع الذى لا يعرف ولا يؤلف بسهولة .. من النوع الذى يرى أن كبوات الحب فى عمر الشباب مثل اللثغة على فم الأطفال .. ما داموا أطفالا فإننا ـــ من أجل لثغتهم ـــ نقبل شفاههم . أما إذا جاوزت هذا العمر فقد أصبحت عيبا ..

وكانت السيدة أسرار تختلف مع نفسها فى تعريف عمر الشباب .. وكذلك ربما اختلفت فى تعريفه مع الناس . فليس الشباب فى نظرها فترة تعيش وحدها منفصلة عن إرادة الإنسان بل هى فترة تعيش مع الإنسان ويعيش هو معها .. يمدها بطول العمر لكى تمده بطول العمر .. لذلك فنزوات الشباب لا عمل لها محدد .. فمن امتد شبابه امتدت نزواته ..

وحمل الفراش الأقداح الفارغة وخرج .. وقال صلاح بعد أن شجعته عيناها :

ـــ سيدة ؟.. وصغيرة السن ؟!..

قالت بصراحة عارية :

ـــ كلهم قالوا لى هذا ..

ـــ إذن فكلهم قالوا الحق ..

ـــ أنا وحدى التى أعرف .. (ثم نظرت إلى البدوى) يبدو على الأستاذ أنه يقول الشعر ..

قال البدوى :

ـــ بأربع لغات ..

قالت بلباقة :

ـــ العامية والعربية .. ثم ؟!

فأطرق فى حياء .. وتدخل صلاح حتى لا يبقى بمعزل عنها :

ـــ بالعربية والإنجليزية والعامية والحلمنتيشية .. أليس هذا رائعا ؟

ـــ آ .. أوه .. كم أحب ذلك .. إن لى شعرا مكسورا وأريد أستاذا ..

رد البدوى وقد التهب وجهه فى حمرة جذابة :

ـــ أكون سعيدا ..

والتفت إلى صلاح ثم إليها ثم استطرد كمن اتخذ قرارا أخيرا :

ـــ هل تعرفين من كاتب المقال الذى تتحدثين عنه .. إنه هو هذا الشاب ..

هذه اللحظة لا يعرف صلاح ما عمقها ؟.. حين اتسعت عيناهــا السوداوان كنافذتين تموجان بما لا يحصى .. وكل سر فيهما يناجيه الآن . وأحس وليس يدرى لماذا ـــ أن قوى البشر العليا بكل أنواعها مسئولة أمام

نفسها ـــ كقوة من روح الله ـــ عن أن تحرر مثيلاتها من القوى المخذولة التى كتب الحظ عليها أن تعثر . أحس كأن الشارع المضىء فى القاهرة مسئول عن الأزقة المظلمة فى قرية النجومى .. وأن هاتين العينين المهلكتين فى القوة والشخصية والجمال مسئولتان عن كل عين رمداء فى قرية النجومى ، وحتى هذا الطيف من العطر الذى لا يزال هائما فى الحجرة مسئول عن رائحة الأمهات العالقة بهن من الرضاعة وحلب المواشى .. وبالتالى فإن الحقول المضيئة لا تقل مسئولية عن الشوارع المضيئة لما يخيم على قرية النجومى من ظلام ..

ووثب إليه فى هذه اللحظة طيف جميل آخر .. أجمل من طيف اليوم .. هو عم محمد الجندى .. تصوره يحمل فناجيل السحلب ليقدمها للسيدة أسرار .. ماذا كان يقول عندما يرى عينيها .. كان حتما سيعود بخاطره إلى ما مضى ويحكى حكاية الجنيات .. ويعرج بعد قليل إلى العصر .. هذا العصر .. ويضع كفيه مضمومتين على بطنه ويرخى أهدابه كمن يصلى ، ويقول كما هى عادته عندما يرى شيئا جميلا : « والله هذا حرام على النار .. » .

ثم أفاق صلاح على صوت السيدة أسرار :

ـــ أنت شاب رائع .. سيكون لك مستقبل ..

كاد يبكى .. هذه الكلمة تؤلم .. قيلت له بعد كل فشل .. فكيف تقال اليوم بعد ما يسمى نجاحا .. غير أن نبرة صوتها فعلت به ما يفعل (النوشادر) .. أفاق منها عليها .. وعاودته بصورة مكبرة أكثر اندفاعا وحماسا ذكريات المنصورة ، والمشى على النهر .. وكوبرى طلخا .. والشعر الأصفر والشعر المكسور .. والوقوف فى المنعطفات فى الظلمة .. لكنه ما لبث أن رأى الحياة بهذه الطريقة قميئة بالنسبة إلى السن والرغبات .. وكذلك بالنسبة إلى

ما اكتسبه من معرفة . وهو يزيد إيمانا بأن قوة البناء لا تكون بمادة واحدة .. فليس هناك جدار من الآجر وحده ولا (مونة) من الجير وحده . هناك مخلوط من الأشياء .. ومثله مخلوط من الناس .. فماذا يحدث لو أن ثالوثا من الحاضرين الآن فى دار المجلة .. أسرار والبدوى وصلاح .. لو أن هذا الثالوث امتزج ؟..

وقال صلاح على استحياء :

ـــ أنا لست رائعا .. لكن ممكن أن أكون رائعا منذ هذه اللحظة ..

وأكدت عيناه العسليتان قوله .. نظرته كنظرة صقر ووجهه فى وسامة قمر .. وإذا كان عيبا أن يقال هذا عن رجل فالذى دعا إليه هو أن السيدة أسرار كانت أقل جمالا من الرجلين لكنهما لم يستطيعا أن يقاوما فتنتها .. كانت الفتنة تكمن فى أشياء ترى منها وأشياء لا ترى .. شعرها المهوش وحقيبتها غير الأنيقة .. ولهجتها السريعة الظامئة .. وجرأتها وحياؤها حين يختلطان معا فى مشهد واحد مثل النور والظلام فى الأفق ذى الشفق .. وأردافها الكبيرة وضحكتها التى تخرج من صميم القلب حين تفتح فمها ضاحكة فى حركة ربما لم تكن رشيقة .. والوجه الخالى من المساحيق والشفاه لم تطل بشىء .. والعطر فى حقيبتها بجانب القلم .. كل هذا كان من الجانبين لغة مفهومة بالنسبة للآخر .. أكدت له أنه لن يكون هذا آخر لقاء ..

* * *

ولم تعد السيدة أسرار منذ ذلك اليوم ولم تقل عن نفسها أكثر مما قالت ، تركت للرجل والشاب « اسكتش » لصورة . ولم تكلف أحدًا منهما بإكمالها .. لكنهما فى سهراتهما التى لا تنقطع إلا فى القليل كانا يجنحان إلى الحديث عنها .. كانت عينا البدوى الفاتحتان تموجان بالتأمل وراء النظارة الطبية حتى ورد

الليلة ذكرها وقد مضى على لقائهما أكثر من شهرين .. فأخذ الرجل يقول فى تفلسف شديد وشوق مكتوم :

ـــ بخبرتى عن النفوس يا صلاح وبناء على ما قرأته من علم النفس خصوصا العلامة (فرويد) يا بنى .. (وبسمة) ، أستطيع أن أقرر أن السيدة أسرار أطلق عليها هذا الاسم بعد أن كبرت .. لأنه لا تناقض مطلقا بين الشيء واسمه بالنسبة إليها . ربما كان اسمها وهى صغيرة (بهيجة) ثم غير اسمها لسبب ما .. وهذه الفتاة بما عرفته يا بنى من علم النفس وخصوصا العلامة (فرويد) ، (تُعرف) ولا (تحب) وهى فى مثل هذا العصر تعتبر سابقة .. والذى يسبق المجموع تراه كل العيون .. وأنت تعرف أن للسبق مساوئ تقع على الشخص نفسه وقد يجنى منها الحنظل .. وإذا كانت الدعوة إلى سفور الوجه لقيت فى الشرق عناء فإن الدعوة إلى سفور الروح لقيت عناء فى كل الدنيا .. فكما عانت المرأة خلف النقاب عانت الروح فى بيوت النار والأصنام وقيود الكهنوت .. (صمت) صلاح .. كأنك نائم ..

انتفض الشاب .. كان مادا ساقيه فلمهما . اعتدل فى جلسته ومد شفته قائلا فى أسى وحنين :

ـــ لم نعد نراها ..

ـــ هل أعجبك طرازها ؟

ـــ عندنا فى القرية رجل اسمه محمد الجندى حدثتك عن صفاته كثيرا ..

ـــ كأنى أعرفه ..

ـــ كم أتمنى أن يجمع بينه وبين هذه السيدة مجال .. تمرد الجاهل وتمرد المتعلم .. تصورته وهو يضرب لها الأمثال مثلا وراء مثل .. وهى تسمع وترد بمنطق . لقاؤهما إذا اجتمعا يذكر بنقش (فلكلورى) على واجهة أحدث

فندق .. أو .. يا سيدى ..

ـــ أنت تعانى من ضيق مالى .. المسائل نسبية .. هذا لا يهم .. كل ما يهم أن تعرف ماذا تريد .. أو ما غاية الرحلة ؟! أما المشقات فلا مفر منها لمن يريد شيئا .. حتى ولو لقاء مومس ..

رد فى كمد :

ـــ أعرف هذا ؟!

ـــ آه .. هل قرأت أخبار دائرة المعارف الجديدة ؟ كيف فاتك ذلك ؟ صحف اليوم تحدثت عنها بحماسة ..

ـــ إعراضى عن قراءة الصحف تعبير بسيط عن سخطى على الواقع .. لذلك فإنى لم أقرأ صحف اليوم ..

ـــ على كل حال هذا عمل عظيم ..

وتنحنح ثم سعل .. كان يريد أن يخرج الشاب من أفكاره لكنه لم يستطع ، ومع ذلك استطرد يتكلم ، فهو كثيرا ما يكلم صلاح وهو مستغرق فى النوم مدركا ذلك أو غير مدرك . هذا إذا باتا معا .. « البلبل لا يغرد ليسمع الناس » ، كان البدوى يقول لصلاح هذا عندما يسخر منه فى لحظة يقظة ويقول له : إننى كنت نائما ، وبعد أن يسمع رد صديقه يقلد صلاح صوت البلبل ثم يستأنف نومه .. وقد يستأنف البدوى حديثه بعد أن ينفخ من أنفه ..

وها هو ذا الآن يتحدث عن ناس اجتمعوا ليبدءوا العمل فى دائرة معارف عربية :

ـــ عمل عظيم .. والأعظم من هذا أننا قوم عندنا كل شيء .. الأمية ودائرة المعارف وبائع الأختام يجلس فى أحد الميادين فى العاصمة ليكتب للأميين

أسماءهم محفورة فى دائرة من النحاس اسمها (الختم) .. ووراء هذا الرجل فى الميدان واجهة زجاجية عظيمة لإحدى المكتبات التى تعرض أفخر أنواع أقلام الكتابة المصنوعة من الذهب .. (هى هى هى) عندنا كل شيء والحمد لله .. فما يحزنك يا بنى العزيز ؟

قال صلاح فجأة و لم يكن ذلك على باله :

ــ أريد أن أسافر ..

ضحك البدوى وأقفل كتابا . وقام يتمشى فى الحجرة وهو عاقد ذراعيه على صدره . أحس حقيقة أن صديقه الذى يملك المال والشباب يقع الآن فى أزمة . وهو يعلم أن أخاه فى بلده حنق عليه مما كتبه . ويعلم أن الفلاحين هناك (قلبهم مع « على » .. وسيوفهم مع « معاوية ») أفظع وضع .. أن نسل السيف فى وجه من نحبه لأمر ما .

وقال البدوى بعد قليل :

ــ أليس فى سفرك ما يسيء ؟..

رد صلاح بإهمال :

ــ لا .. مثل هذه الأشياء لا تثير ثائرة أخى .. وإلا ما كان أرسل إلى مالا .. هل يخاف من كلمة كتبتها فى مجلة ؟.. وعلى رأيه « نوع واحد من الورق هو صاحب السر » وهو يقصد النقود .. أما ورقنا نحن يا سيدى فمن الممكن أن نشربه منقوعا .. ولو كنت فلاحا لعرفت أن قوله على حق كبير .. لكن .. كيف نغير الناس والأشياء .. إنها لا تتغير إلا بأسلوبنا نحن وعن طريق الورق الأبيض .. لكن .. لا بد من الزمن .. وقد قلت لى : « إن الزمن أستاذ » .. لكن يا صديقى ماذا نفعل بأستاذ صامت .. يدخل ولا يتكلم ولو كان فى

رأسه علم جيل .. آه .. أشعر بالحنين إلى أرض النجومى .. ولو أننى فضلت عليها ذات يوم قاع سفينة من الفولاذ المظلم الحار ورائحة التوابل تكاد تخنقنى ..

ــ آه .. قد يكون فى استسلامنا للعاطفة خطأ ما .. لكن الاستسلام للعاطفة مفيد فى حد ذاته وإلا كانت كأنها غير موجودة .. وهى تعطى التجربة ولو كانت جرحا .. (صمت) سافر .. رعاك الله ..

وفى آخر السهرة تعانقا .. قلب كل منهما يخفق .. رأى البدوى مقدما مخالب الوحدة .. لم يسبق أن رآها كأنما نبتت حديثا .. ورأى صلاح مقدما وكأن نور المدينة انطفأ فجأة وأصبحت فى ضيق وتعرج حارات قريتهم .. ودمعت عينا البدوى وهو يبتسم .. لمعت الدموع خلف زجاج النظارة وأخذت اثنتان منهما طريقهما من تحت (الشنبر) . وأحس صلاح أن فى الدنيا أشياء صغيرة لا تحتمل وفيها أشياء كثيرة يمكن أن تحتمل ..

وعندما تلوى به شارع الخليج فى عودته كالعادة كان نسيم القاهرة يتحدث عن الربيع ، والظلمة التقليدية المخيفة على الشارع لم تخل من نداوة .

وكان يسأل نفسه عن سبب قراره المفاجىء عن السفر : أهو طلب المال .. أهو حنين لأرض ولد فيها .. أو أن هناك سببا آخر قويا تنكر .. وهو الحنين إلى السيدة التى لم يرها منذ اللقاء الأول .. ما كان أجمل عينيها .. إنه يكره اندفاعها لكنه يشعر أن شيئا ما ربطه بها .. ربما كان فى الصوت أو الهيأة أو .. لقد عرفه أخيرا .. إنه فى الضيق من الدنيا .

ولحظ فجأة أنه بحذاء النافذة المعهودة .. تلك التى فرضت نفسها عليه

دون كل النوافذ ولو أن وراءها فراشا رخيص التكاليف لكن فيما يبدو له .. كان مهدا للحب .

وفى هذه الليلة كان المصباح فيها لا يزال سهران .. والصوت المخمور للمرأة التى لم ير وجهها يتناغى ..

همس لنفسه من جديد وهو يتنهد :

« آه .. لقد كبرت » ..

٨

وقعت عيناه على الربوة قبل مدخل القرية .. « حريق على الربوة » .. وهذا المكان لم يدخل إليه بعد مستشفى متنقل .. والأطفال يبولون فى القنوات .. وهناك شبه (نصب تذكارى) أقامته الحادثة بنفسها .. بقية جذع نخلة أكلتها النار وهى واقفة .. كانت فى عمر الشباب لا تزال قصيرة ولذلك احترق جريدها كله وبقيت بقية من الجذع مثل (النصب) .. أحمر وأسود متفحما ..

ثم لقيه الناس .. « أهلا يا سى صلاح » .. ما لهم فى الريف هكذا يكبرون بسرعة ثم ينحدرون إلى الشيخوخة ؟!

« لم تتغير النظرات التى تركتها فى عيون الثيران .. ولغط الجرارارت لم يتغير .. وطه أخى .. واقف بعوده الطويل ولكنه يميل الآن إلى السمنة .. قبلنى فى جبينى قبلة أحسست فيها طعم الرثاء لى واليأس منى .. وازنت بين عينيه القويتين المنهوكتين وعينى صديقى البدوى .. وتذكرت قول أخى عن الأرض . « إنها قاسية » .. لكننى عرفت اليوم لماذا تبدو القسوة فى عينيه .. ذلك لأنهما لا تستطيعان أن تريا الأفق الذى تنتهى عنده أملاكه .. ولو رآه لارتاح .. عيناه تقولان لى لماذا جئت ؟ ثم يجيب بعينيه كذلك .. عرفت رغبتى .. ثم هز رأسه بالإيجاب موافقا .. كل هذا دون أن يتكلم .. » .

لم يتألم صلاح لما حدث وقرر أن يبيت فى القرية ..

وهذه هى الأزقة المظلمة المتعرجة تذكره بشوارع القاهرة : « قل لها تعطينا

فانوسا » .. وكذلك عين محمد الجندى وزوجته .. ذكر بهما عينى « أسرار » .. كان الرجل بادى الشيخوخة .. هذا هو الذى احتضنه وبكى .. وقال له كلاما طويلا فى اللحظة القصيرة التى يستغرقها الحضن .. بالفم والتنفس .. وكاد صلاح يشعر أنه طفل يلعب على مقربة من عربة أبيه .. ومحمد الجندى يغسلها ويحكى له حكايات .. لكنه اليوم لم يعد شابا :

« لا أقدر فى هذه الأيام على تقديم القهوة يا سى صلاح .. انظر .. انظر » .

ونظر صلاح إلى كفيه فإذا هما ترتعشان .. بدون انقطاع .. واستطرد الرجل :

ـــ هل تعرف الذى أصلح له هذه الأيام ؟! خادم فى أحد المساجد أحرس نعال المصلين حتى أموت .. لكن .. ليس هنا .. ليس فى قرية النجومى .. آه يا سى صلاح !.

ـــ ممكن أن تعيش معى فى القاهرة يا عم محمد .. ولا تقل هذا ..

ضحك الرجل فى خجل وأطرق فى ضعف شديد .. ورد :

ـــ هل رأت عينك النخلة المحروقة فى مكان المستشفى ؟ هل يمكنك نقلها ؟ جذورها فى الأرض السابعة وليس فى رأسها جريدة خضراء .. (وتحسس رأس نفسه وضحك فى سخرية) .. أنا اليوم مثلها يا سى صلاح .

تنهد الشاب .. وسكت .. كان يشرب شايا من صنع زوجة الرجل .. كان فى فمه عذب الطعم . رائحته كانون ونعناع وشيء من الصدأ .. لكن .. له فى نفسه ذكريات عظيمة القيمة .. وفجأة بدر من الرجل سؤال إلى الشاب كان غريب الوقع على قلبه :

ـــ هل زرت قبر النجومى الكبير ؟!

هز صلاح رأسه يومئ بالإيجاب .. ولم يدر ما الدافع إلى سؤاله لكنه

تذكر نفسه ضحا اليوم وهو فى حوش المقبرة حيث يرقد النجومى بلا عباءة ولا عصا .. ولكى يؤنس وحدته كتب على القبر آيات من القرآن لا تكاد تحصى ﴿ يأيتها النفس المطمئنة .. ﴾ .. ولم يدر لماذا ذكر الرخام الملقى فى مسقط النور فى بيت صديقه البدوى .. ذلك الذى لم ينقش عليه حرف .. وتلك الليلة التى مات فيها أبوه وأطفئت الأنوار .. وسعى بين الفلاحين بملابس حارس الملك وهو لا يدرى .. لكنه ما لبث أن أفاق وقال لعم محمد :

ـــ لكن .. لم هذا السؤال يا عم محمد ؟

قال الرجل فى ضعف غير معهود :

ـــ لأنك حضرت موته وأود أن يكون حظى مثل حظه .

ـــ أنت الليلة غيرك يا عم محمد .. أين أنت ؟

ـــ غبت عنا سنتين .. بعض الناس يقرءون كلامك هنا ويفرحون أو يحزنون .. ولكن الباق .. لا يعرفون شيئا .. أخوك امتلأ ذهبا .. (وبحنان) وأنت يا سى صلاح كيف حالك ؟

ـــ هل تحب الذهب ؟

ـــ وجعتنى .. أنا الآن لا أحب شيئا .. كنت أظن أن الدنيا ستتغير بعد موت والدك .. لكن (ضحكة) يظهر أنها تغيرت فى ميدان باب الخلق فقط عندك أنت .. هنا .. لا .. كل ما أشتهيه الآن أن يكون لقبرى شاهد .. (ضحكة) هل يرضيك أن أتوه حيا وميتا يا سى صلاح .. آية واحدة ورحمة والدك !.

قال صلاح ممازحا :

ـــ اخترها من الآن يا عم محمد .

تنفس الرجل طويلا وسعل وقال بصوت خشنه البلغم آية حفظها من فقيه القرية :

ـــ ﴿ غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ .

صفق صلاح بكفيه واستغرق فى الضحك وهمهم الرجل بضحكة وانية لكن بخفة ظل .

وقال الشاب :

ـــ وهل تكتب مثل هذه الآية على قبر ؟

رد الرجل بعناد :

ـــ غريبة ؟ حتى هذا تتحكمون فيه ؟ أنا حر بعد موتى ..

ـــ لكن يا عم محمد .. هل تفهم معناها ؟!

ـــ كلام الله نفهمه بقلبنا .

ـــ أنت عنيد هذه الليلة .. هناك آيات معروفة لمثل هذه الحالات .

ـــ سألت عنها الفقيه فأفهمنى معناها .. تعجبنى .

ـــ هل أنت ذاهب للموت أو للحرب .. هذه الآية للحرب .

ـــ سنحارب بعد الموت (قالها بضحكة خفيفة) .

ـــ كيف هذا ؟!

ـــ سيكون لنا قوة ليست لنا اليوم (صمت طويل جدا) هذه وصيتى .

* * *

وامتدت إقامة صلاح عدة ليال .. كانت الليالى فى القرية بالنسبة إليه شيئا مملولا . أنين الثيران وصمت الآدميين .. ونباح الكلاب أحيانا .. وبدا غريبا أكثر .. خصوصا لأن أمه لم تكن حنونا عليه .. ولما سألها عن ملابس التمثيل التى تركها هنا ، قالت إنهم أرسلوها لأصحابها .. وفى صبيحة اليوم الذى أزمع فيه العودة إلى القاهرة دخل عليه أخوه طه باسما .. وفى بسمته خبث شديد .. حدس صلاح منهما كأنه قد أعد له قبل مجيئه إلى القرية « خازوقا » من صنعه

هو لا من صنع غيره :

ــ صلاح .. مسافر يا حبيبى ؟!

ــ بإذن الله .

قال بنفس الروح :

ــ لا .. ابق عندنا للغداء اليوم لأن محمد الجندى مات .

وقبل أن تحجب الدموع المرئيات أمام عين الشاب رأى شقيقه وهو يدير ظهره وسمعه وهو يضحك .. لكن المهم أنه بعد صلاة العصر خرجت القرية كلها تشيع الرجل . وكانوا يهمسون كأنما يستعظمونه على الموت وإن لم يستعظموا حياته .. ودخل الرجل قبرا بلا شاهد فوقف صلاح يفكر :

« إن بنيت له شيئا سيهدم بعد سفرى .. وإن كتبت على قبره شيئا .. مسحوه .. (وابتسم دامعا حين تذكر الآية والوصية) .. لكن .. هل يرى الناس قبر النجومى ولو كان فوقه قبة ؟.. لكنهم سيرون قبر هذا الرجل ولو كان البحر قبره .. لن يستطيع أحد حتى العدو أن ينساه .

* * *

لم يكن فى المجلة أحد ساعة دخلها اليوم .. زميله ــ كما أخبره الفراش ــ ذهب لمقابلة صاحب المجلة فى بيته .. استدعاه لأمر ما .. وهو لا يدرى متى سيعود ..

جلس صلاح يدخن .. عاد من القرية بنقود وجروح .. النصب التذكارى . جذع نخلة محروق . ومحمد الجندى فى قبر بلا شاهد ، وصايا المساكين لا تجد من يسهر على تنفيذها .. ولو كتب هذه الآية على قبره ما فهمها الناس .. لكن .. (الزمن أستاذ) كما قال صديقه .. عيبه أنه لا يوجه حديثه لفرد بعينه .. قضاياه عامة وحديثه ــ بالصمت ــ عام

لا ينقطع .. رائحة الشواء والمطعم والركن المظلم : « أين أنت الآن يا صديقى ؟! إننى جوعان » .. إذا حزن صلاح أحس بالجوع وإذا ذهب عنه الخوف أحس بالميل نحو الجنس .. وإذا فرح بكى .. وإذا جزع جفت دموعه .. لم يذق مرضا قط .. يمر على باب مستشفى قصر العينى ويتأمل المرضى ويود فى بلاهة لو كان أحدهم مرة .. إحساس يقرب من الشذوذ أحيانا .. كوبرى الجيزة ليس له رائحة كوبرى طلخا .. وطلاب (المنيل) يعبرون إلى الجامعة فى زوارق صغيرة .. ويتضاحكون . وكذلك الوافدون من السيدة زينب .. « أين .. أى أحد ؟! » .

واستفاق صلاح على تحية بصوت هامس كأنه يداعب .. هامس غير مبال كأن صاحبه على وشك أن يخطف شيئا ..

ـــ السلام عليكم ..

رد التحية فى نشوة لم يعرفها من قبل :

ـــ أسرار ؟! جئت فى الوقت المناسب .

جذبت كرسيا وجلست ضاحكة تمرجح جذعها وتطوح رأسها ثم زادت همسا :

ـــ مناسب ؟!. مناسب لأى شىء يا ابنى .

خفة ظل وغموض .. ووجهها يبدو عليه التسرع .. لبسها اليوم ليس فيه أى أناقة وثوبها واسع الطوق .. صدرها الأسمر باد أكثره فى حيوية وصفاء فوق الوصف .. فمها مفتوح تماما بضحكة لم تنته .. ولا يفوح منها عطر .. فى يدها حقيبة أنيقة .. وحذاؤها عالى الكعب .. شعرها مسرح كله إلى الوراء كشعر فنان من القرن الثامن عشر .

ولم يرد صلاح .. كان محملقا فى عينيها المهلكتين زاما شفتيه كمن يمنع

نفسه عن البكاء .. عطفت عليه أكثر وبدت أقرب إلى الجد الحزين .. فجأة :

ــ مالك ؟.. أنت محتاج إلى حقيقة ؟!

ــ جدا ..

ــ فى أى شيء ؟ قل .. الشيء الذى يطلب بالفم لا يمكن أن يكون قبيحا .

ــ نتغدى معا .

ــ موافقة .. أين ؟!

ــ المطعم قريب منا .

وعلى نفس المائدة التى جلس عليها للمرة الأولى فى مطعم الشواء هو والبدوى جلس اليوم هو وأسرار .. الركن مظلم ورائحة ربيع .. وأزهار بسلة فى زهرية كبيرة . وجهها إلى الباب وهو أمامها .. وأمسك سكينا أمامه .. كانا لا يزالان صامتين . تحملق هى فيه وفى المكان كأنها سترسمه . ثم أخذ سكينا أخرى .. وبحركة غير إرادية جعل يحك السكينين حد الأولى بحد الثانية بلا صوت كأنه يشحذهما ، أسرار تراقبه .. وتكتم ضحكها .. والشواء يجهز ..

صوتها عادة مرتفع النبرة لكنها إذا دخلت أماكن عامة تحول صوتها إلى همس .. استلذه الشاب .. أحس بيدها وهى تأخذ إحدى السكينين وتضعها على المائدة .. ثم سألت وقد مال وجهها نحوه :

ــ مالك ؟.. مهموم .. لحظت ذلك .. هل تستفيد منى (هىء هىء) لا أحب أن يسمعنا أحد .. ابلع ريقك باستمرار إذا كنت مهموما فهذا أحسن علاج .

فتح عينيه فيها .. وبدت أمواج الضوء الداخل من الباب المواجه إلى الركن وهى منصبة فى عينيها .. على شفتها السفلى انفعال وعدم مبالاة ..

وهز صلاح رأسه ليقول إنه غير فاهم شيئا فاستمر همسها :

ــ هل تعرف معنى بلع الريق باستمرار ؟.. بصق .. لكنه إلى الداخل بدلا من الخارج .. أحيانا تحتم علينا الظروف أن نبصق فى داخلنا .. أنا أعمل ذلك فى ساعات ضيقى بدل أن أفعل شيئا غير صحى .. (ضحكة أعلى نوعا) ولماذا نبصق على الأرض .. أعتقد أنها تشبعت .. يا ابنى .. حاول أن تضحك أحسن لك .

ــ أنت رائعة ..

ــ وهم .. نحن لا نزال مثل اثنين على ظهر مركب .. لم يتم التعارف تماما .. أنا أكره التعارف بتقديم البطاقات .. مثل الخطوبة .. اغتصاب للعلاقة .. أحسن أنواعه ما يأتى بتقديم الشخصيات بدل البطاقات .. أين كنت قبل اليوم ؟!

ــ فى القرية .. وأنت ؟..

طوحت جذعها وربعت ذراعيها على صدرها وانبرت تقول كأنها تقرأ :

ــ أنت كنت فى القرية أما أنا .. ففى ألف مكان .. سافرت مندوبة للشركة التى أعمل بها إلى عدة جهات .. وحللت من المشاكل ما عقده الرجال قبلى .. وأنا دائما تسحرنى الأسفار .. ويلذ لى كثيرا أن أخرج بلا برنامج فى يوم راحة .. ولذلك كانت مفاجأة لنفسى أن وجدتنى أدخل المجلة اليوم لأراكم .

ــ مجرد مصادفة ؟ إذن لم تذكرينا منذ افترقنا .

ــ بالعكس .. لم أنسكم .

لهجة حملت رقة متفوقة .. مع هزة رأس فيها أسى غامض . استطردت بعدها :

ـــ وأين زميلك ؟.. فى عمل خارجى ؟.. كم هو طيب وملىء وظريف !..
ـــ حكمت عليه بهذه السرعة ؟
ـــ بعض الناس يحملون أحكامهم على أنفسهم مكتوبة على وجوههم .. وصديقك من هذا النوع .

همس صلاح بفضول :

ـــ وأنا ؟

فتحت عينيها كأنها كبيرة أرادت أن تخيف طفلا وابتسمت له وهزت رأسها مرتين :

ـــ بعكسه تقريبا .

ـــ آه . هذه شتائم .. اذكرى ما قلته عن صديقى (وضحك) .

ـــ ليس كثيرا .. لكنك من طينة أخرى ؟ (هىء هىء) وأنا ؟!

ـــ لا أدعى أن لى قدرة مثل قدرتك على فهم النفوس .. وأنت على صواب فى أمر واحد وهو أنك تدعيننى بـ (يا ابنى) .. وكل ما أستطيع تقريره أنك سيدة ذات شأن .

ـــ هذا كل ما عندك ؟.. غدا تعرف أكثر .. ها هو ذا الشواء قد أحضر .. أريد ماء باردا جدا من فضلك .. (وإلى صلاح) لا أعرف لماذا أحب هذا ؟!. أعتقد أن أهم ما يجب أن تعرفه عنى هو حبى للتغيير .. لا تنظر بخبث .. ربما حتى فى هذا ؟! عمر الإنسان قصير إلى درجة ترفض الرتابة .. وقالوا إن الإنسان قديما كان يعيش نصف ألف سنة .. فلا بد أنه بنى حضارات أغرقتها الطوفانات .. أنت فى الثلاثين من العمر .. أليس كذلك ؟ (أومأ بالإيجاب و لم يحزن) وأمامك عشر سنوات لكى يكتمل عقلك .. (ها ها) هذا إذا اكتمل .. فى الشركة عندنا مراهقون فى التاسعة والخمسين وأطفال فى الثلاثين .. و لم أجد بعد شابا فى الستين من عمره .. فى الحكمة ..

ولأول وهلة سمع صلاح صوت السكين .. لم يظلل صمت إلا هذه اللحظة . كانت هى تشرب .. ترتشف الماء ببطء شديد كمن يتمصص ثلجا .. وعندئذ سأل :

ـــ أنت واسعة الثقافة يا سيدة أسرار ..

ـــ لم أتخرج من الجامعة ..

ـــ لماذا ؟!

ـــ لأننى سقطت ..

ـــ فى ؟..

ـــ فى النيل ذات يوم وأنا أعبر فى زورق صغير من (المنيل) .. كنت وحدى مع النوتى .. وسبح ونشلنى ..

عادت تضحك بصوت خفيض .. وبدا كلامها ذا جوانب .. وأيد ضحكها رأى صلاح .. كانت تقصد غير ما تحكى .. لكنه قال :

ـــ حادثة مثل هذه لا تمنع من استمرار الدراسة ..

ـــ سقطت ونشلت .. ماذا بعد ذلك ؟!

هز رأسه متغابيا وسكت . وهمهم :

ـــ فى أى كلية تدرسين ؟

ـــ فى الحقوق سنة .. ورسبت فى معظم العلوم ..

ـــ برافو ..

ـــ تركتها .. لم تقنعنى .. إذ وجدت القانون يوضع للضعفاء وحدهم .

ـــ هل تريدين قانونا للأقوياء ؟!

ـــ الناس كلهم ..

ـــ حتى الذين يضعون القانون ؟!..

ـــ أعتقد أن أول ناس اجتمعوا لوضع قانون على الأرض كانوا أقوياء لا أتقياء ..

لم ترد ، صمتت تفكر .. شبكت أعلى السكين بأعلى الشوكة وأوقفتهما متساندين كضلعى مثلث المائدة قاعدته وأخذت تنظر .. ثم هتفت كمن ذكر شيئا نسيه :

ـــ وبعد ذلك التحقت بالآداب . سنة أخرى ..

ـــ وسقطت ؟!

نظرت إليه .. كان فى عينيها شيء جديد . ليونة وفتور .. وبدا جزء أكثر من صدرها لميلها على المائدة .. وعلى وجهها سهوم من يكاد يشرع فى الغناء . صفر صلاح بصوت خافت جدا محاكيا صوت البلبل فلم يكن على قربهم أحد .. ففتحت عينيها وقالت :

ـــ لم أسقط .. تركت كلية الآداب فى نصف السنة فقد كانوا يدرسون كلاما لا يعجبنى .. قل ماذا أنت ؟!

ـــ أنا .. آه .. فى الحقيقة .. اسمى صلاح النجومى وأبحث عن شخص اسمه صلاح النجومى .. لا أدرى .. كل ما أعرفه أننى غنى .. وأبحث عن الحرية .

ـــ عظيم .. أنت تبحث عما أبحث أنا عنه ..

ـــ عظيم .. إذن فليقدم كل منا شخصيته إلى الآخر .. هيا نخرج . هل تحبين أن نذهب إلى مكان معين ؟

صمتت طويلا .. بدا التفكير الحقيقى على وجهها كأنها ترتب جدول أوقاتها . صمتت .. ثم قالت فجأة وهى تنظر إلى الساعة فى معصمها ..

ـــ كان بودى .. اليوم .. آه .. ممكن ؟! (وهزت رأسها ثم بصوت أعلى) اليوم لا .. يوم آخر ما دمنا نعيش .

وصافحته على عجل وخرجت .. أراد أن يوصلها حتى الباب فلم تنتظر .. كادت تتعثر فى أحد الكراسى قريبا من الباب .. وكان صلاح قد استدار يراقب ظهرها .. عندئذ أحس بحنين وغيظ ووجوم .. أحس أنه لا يمت إلى أحد بصلة .. وشرب ما تركته فى كوبها من ماء حتى آخر قطرة .. وخرج من المطعم لا يلوى على شىء .

* * *

ذهب فنام .. واستيقظ والليل مستتب .. انتبه لأول مرة على رائحة جلود . فهناك مصنع أحذية وحقائب حريمى فى البدروم فى المنزل الذى يسكنه ، لماذا لم يحس به واضحا إلا الليلة ..

كان يهبط السلم ساعتئذ .. جسمه كسول .. كان فى الطريق إلى صديقه البدوى فقد أوحشه جدا .. رأى نور نافذة النوم مطفأة فرجح أنه غائب لكنه طرق الباب ففتح له .. تعانقا .. بضعة أيام غابها عنه أينعت فيها الصداقة .

وعرجا على حجرة المكتب والنوم وجلسا .. كان البدوى فى ثوب فضفاض خاطه لنفسه فكان غير مضبوط . لكنه كان فى بياض السوسن .. وأضفى على الرجل روحانية تقرب من الرهبنة .. وجلس البدوى يفرك كفيه كأنه يستدفئ : « غبت كثيرا يا صلاح ، القاهرة بدونك ليست عاصمة » .

— إلى هذا الحد ؟!

— كل شىء بدونك غير أساسى .. حدثنى عن أحوالك .

— . . . .

— . . . .

— آه كل هذا ؟ كل هذا ؟ اذهب أولا فاشتر لنا ما نتعشى به وارجع ..

وعلى العشاء كان البدوى يتحدث .. صاحب المجلة استدعاه اليوم وأبلغه

أنه قرر أن ينضم إلى حزب الفلاح . وسيعلن ذلك غدا فى الصحف قريبا ..

وابتهج صلاح لهذا الخبر .. وأبدى البدوى كثيرا من التحفظ .. وقال لصديقه إن صاحب المجلة أمره أن يكتب منذ الغد ضد ملاك الأراضى . وعند ذلك نهض الشاب واقفا وصفق مثل عصفور ينفض جناحيه لحظة الطيران . وكان صديقه يمضغ شيئا تحت ضرس يؤلمه فبدا وجهه ذا عبوس شديد : « لا تتسرع .. فرب كلمة حق أريد بها باطل . سنكتب ضد ملاك الأراضى كما يقول صاحب المجلة وسنرى بمرور الأيام ما يتم » .

لكن صلاح كان فى عالمه فقال بفرحة :

ـــ سأسهر لأكتب .. عن قبر بلا شاهد !

ـــ قبر بلا شاهد ؟!

ـــ قبر فلاح أسير أسرتى حتى مات .. ولو كان لحزب الفلاح سفراء فى القرى لكان هو خير سفير له .. رحمه الله .

ـــ الزمن أستاذ يا صلاح .. اصبر عليه وانتبه .. كل شىء سيتغير .. الأغنياء والحكام خائفون .. وكل الأحزاب فى مصر تريد أن يحطم حزب الفلاح .. وهو لا يزيد على لافتة وحفنة رجال ومجلة عرجاء .. فترات الخوف أولى علامات التغير .. آه .. أكلت الليلة كثيرا .. هل أستطيع أن أقرأ وأنا متخم .. أوه .. نسيت أن أخبرك عن شىء جديد آخر .. عن رجال دائرة المعارف .. ظهر أننى أعرف معظمهم .. رئيسهم يدعى أحمد رشاد وهو أستاذ عظيم . العيب فى أساتذتنا أنهم يخشون السياسة .. وأحمد رشاد فى نظرى مثل حى لهذا النوع .. هو الذى سيشرف على دائرة المعارف وقد كون جمعية أهلية ستمول المشروع . قابلته مصادفة فى دار الكتب عند رجل سيعاونه فى عمله .. لو رأيته يا صلاح .. كم هو جليل ومهيب .. لو تجسد الحق المطلق لكان شخصه ..

ويقولون إنه شحيح اليد لكنه كريم العطاء فكريا .. مؤرخ من طراز باهر .. وأديب من طراز عادى .. ومفكر من طراز يعجب ..

وعندما رآنى دعانى للاشتراك معه . قلت فى نفسى إنها فكرة طيبة ومدروسة خصوصا إذا كنت معى .. لكن الوقت كان قد فات .. كانت المجلة قد انضمت إلى حزب الفلاح (وضحك ضحكة عالية) وارتفع أجرى وقرر لك أجر . لم تعد محررا يشد عربة بل محررا سيركب عربة .. بشرى .. ثم تأتى حزينا .. أيها الصغير الذى كبر فجأة .. حزينا من أجل فلاح مات .. ماذا تقول إذن لو كتب عليك القدر أن ترى عالما يحتضر . رأيت ذلك بعينى .. كل هذا لا يهم .. المهم أن مجتمع هذه الأيام قد ضاق عليه جلده .. سنستيقظ من النوم فنرى المجتمع بجلد جديد .. أوسع .. يناسب النمو الصامت الصاخب الهادئ الوديع .. نمو من كل نوع يا بنى .. رأيت بالأمس قطة تصعد سلم دار الكتب الرخامى ، ولما أرادت أن تدخل من الباب أمسك البواب بخناقها ورماها من أعلى السلم .. ضحكت منه وقلت له : أهذا لأنها لا تستطيع كتابة اسمها فى سجل الزائرين ؟!. ورد الرجل فى ضيق :

— تدور على رزقها فى مكان تانى ..

فقلت له : رزقها هنا .. فالفيران فى المخازن أكثر من القراء .. لكن القطة لم تيأس فغذاؤها فى مخزن الكتب .. صعدت السلم وهى تئن وتموء .. ففعل بها ما فعله فى المرة الأولى . كنت أنا على أرض الشارع .. تحت .. أنظر .. فرأيتها تعاود الحركة بنفس جريئة وعزيمة شرسة . فقلت فى نفسى ، ماذا يا ترى ؟.. فانفلتت خلسة ودخلت من الباب .. وسمعت الهرج والمرج ..

وسكت البدوى ونفخ الهواء من أنفه .. وكان صلاح صامتا . وأشعل كل منهما سيجارة ، وفجأة قال صلاح :

— لقد قابلتها اليوم ..

نداوة عينيه تحت النظارة اختلطت بحنان لطيف .. وتبسم فى هدوء .. شبه حلم .. كأنما رأى العربة التى كانت مربيته تدفعها به . و لم يتكلم .. طيف جميل من الصمت خيم على الحجرة .. فقد كان الحديث حول الأمل والعمل والحب . وإن لم يقع بعد .. وخيل إلى البدوى أنه قادر على عمل خارق لكن صوته عبر عن شعوره .. فأخذ يغنى .. وبصوته الهادئ الحلو أضفى جوا جديدا أكثر حياة فذهبت عن صلاح همومه . وضحك وقال لصديقه :

— لماذا لم تسألنى عن بقية التفاصيل ؟!

— غير مهم . المهم أن تكون موجودة .. سنراها كثيرا .. وماذا عملتما ؟

— تغدينا معا ..

— لو كان اسمى السيد البدوى كما قلت لك من قبل لكان الحظ معتدلا . هو مقلوب لأن الاسم مقلوب .. (هى هى هى) ألم تترك عنوانها ؟

— لم تترك شيئا .. انغمست فيها حتى نسيتها .. كلماتها ذات درجات مثل السلم الموسيقى .. كلمة واحدة تعطيك ما تريد وما لا تريد .

شعوذة من نوع علمى .. « سقطت ونشلت » وتقول دون أن تتكلم .. وقد تتكلم دون أن تقول .. وجلست مسترخية على المائدة حتى كادت تنام ثم خرجت من المطعم تتعثر فى الكراسى .. كزوبعة ..

وصمتا .. نظرا فى الساعة .. فعلا ذلك معا .. وأطرقا .. فعلا ذلك معا وفجأة ..

— صلاح .. سألبس لنخرج .. فأنا أحس أن الحياة الليلة خارج هذا المكان ..

* * *

عصاه تحت إبطه وهما سائران فى شارع الخليج .. أجراس الترام ومصباحه الأمامى النعسان .. وصرير عجلاته فى اللفات .. ومعظم البيوت تعطى ظهرها لشارع الخليج حيث تفتح الأبواب فى الشارع الموازى، لذلك بدت معظم الأبنية غير مطلية .. طوب عريان أثرت عليه عوامل الجو ، وجنب الحيطان الطويلة الخالية من الأبواب والشبابيك لبعض الأماكن روائح غير محبوبة ، والبدوى يمشى بخطو واسع جنب صلاح الذى لم يخرج من خيالات اليوم . وأمل الغد ، سيكتب كما يريد .. شعرا وقصصا ومقالات .. كل ما يريد .. فى « المجلة الجديدة » .. التى تعبر عن مصالح الفلاح ..

و لم يبد الشارع طويلا هذه الليلة .. وصلا إلى ميدان باب الخلق .. حيث انتشرت رائحة الموز والفطائر .. و لم يسأله صلاح إلى أين .. كأنما لذ له أن ينقاد ، وعرج البدوى على شارع حسن الأكبر ثم سار .. أحس الشاب بالفضول ..

ــ إلى أين ؟.. هل سنكتب اسمنا فى سجل التشريفات الملكى ، (ضحك البدوى) . لماذا لم تقل لى حتى كنت أحضرت (ختم) محمد الجندى ؟!

مسجد أثرى صغير إلى اليمين .. الآن .. وحارة يدخلان إليها .. تبدو ضيقة . وظلامها ريفى والبيوت فيها من طراز القرن الماضى ذات الأسوار . والأبواب من خشب مزخرف .

ــ وصلنا ..

رد صلاح :

ــ إلى أين ؟!

ــ إلى مقر دائرة المعارف .

ــ يا للبهجة !.

— هل تعرف هذا البيت ؟.. كان ملكا لأحد أفراد أسرة مصطفى كامل . هل تشم رائحة المجد ؟.. انظر هذا السلم المستريح المواجه الذى ستصعده الآن .. يخيل إلى أننى أرى مصطفى كامل بعوده القصير وبذلته « البنجور » الطويلة الذيل وحركته السريعة يصعده أربعا أربعا ..

دقات ساعة حائط .. سقط صوتها من بئر السلم يعلن انتصاف ساعة .. الوقت متأخر لكن أصواتا فى أعلى لا تزال يقظة .. وضحكة متدفقة بصوت أجش أعقبها صوت جرس مكتب .. ورائحة ورق وأزهار ..

كانا يصعدان السلم .. وفى المنحنى رأيا شبحا .. كاد الاثنان ينكران ما يريان .. إنها السيدة أسرار .. تحيى بأعلى صوتها وكأنها فى بيتها :

— أهلا .. غير معقول .. ماذا أتى بكما إلى هنا ؟..

أمسك صلاح كفها ونسى .. والبدوى لا يزال مادا يده ليسلم .. وأخيرا .. أخذ يدها منه وهو يبتسم .. كانت فوق درجة أعلى فسامت وجهها وجه صلاح والبدوى أدنى منها .. فى ثوب أسود فيه أشياء تبرق .. وخاتم ودبوس .. وأحمر شفاه .. وفى العينين كحل .. امرأة غير التى كانت فى المطعم وقت الظهر .. أحس صلاح إزاءها أنه مخبول .. أما البدوى فكان يبتسم فى هدوء ويتحسس عصاه وينفخ من أنفه . فقالت :

— هل أنتما على ميعاد ؟

هزا رأسيهما معا .. نفيا .. هزة رجل واحد ..

— إذن ..

همست بهذه الكلمة ودخلت بينهما وأمسكت يد صلاح ونزلوا السلم .. وعندما وصل الثلاثة إلى الحوش الواسع قالت كأنها تعاتب أحدا :

— أنا لا أحب الشيوخ .. الشعر الأبيض يملأ رءوس كل من هم هناك ..

وعلى كل حال رأيتهم من بعيد فقط فقد كنت عند شاب فى السكرتارية .. والآن إلى أين تريدان أن تذهبا ؟..

قال صلاح :

ـــ الرأى لك ..

فقالت :

ـــ يجب أن نخضع جميعا لما يقترحه الأستاذ البدوى ..

فرد قائلا :

ـــ من أتلف شيئا فعليه إصلاحه .. كانت لنا خطتنا و لم يعد لنا خطة ، فعليك إذن أن تقترحى .

قالت بصوت كأنه مخمور :

ـــ أريد أن أهيم على وجهى .. أحب هذا . إن وافقتم همنا نحن الثلاثة على وجوهنا .. نمشى كما اتفق ونتكلم كما اتفق ونمضى وقتنا هكذا .. ليتنا نستطيع أن نتسلق سور حدائق الأورمان وندخل ..

رد البدوى :

ـــ هذا جنون ..

فقالت :

ـــ ليس فيها كلاب تنبح . وماذا سيفعل بنا الشرطى ؟ دعوه لى إن رآنا .. سأضع له قطعة من النقود بين أسنانى ليأخذها بأسنانه هو وتنتهى المشكلة ..

قال البدوى بهدوء كامل :

ـــ إذا أردتم خبرتى فلنذهب إلى العباسية الشرقية فهى أنسب مكان لنا الليلة . فهى أولا (عباسية) وهى ثانيا ذات هدوء شامل نستطيع أن نهيم فيه على الوجوه .. آه .. عندما يجتمع كتاب ومصباح وامرأة فلا يحدث إلا شيء

واحد غالبا : يقفل الكتاب .. ويطفأ المصباح .. وتنتصر المرأة ..

هزت رأسها وتماوج شعرها وهى تضحك :

— ملىء ولطيف .. عمل حقيقى أيها الرجل الطيب ..

***

العباسية الشرقية نائمة ..

شوارعها الواسعة خاوية .. وظلال الشجر فى الليل ترسم دوائر من الظلام ذات تعبير (سيريالى) .. غموض مشهور على بعض النوافذ التى لا تزال مضيئة ، وعلى الأسوار الحديدية التى ينظر من وراء بعضها كلب حراسة وللسماء صفاء وشفافية تسحر الروح ..

وكلما حاول أحد الرجلين قراءة اسم شارع منعته أسرار .. شعر الثلاثة حقيقة بالانفصال عن المألوف .. كانوا يتكلمون فى كل شىء ، وأضفى البدوى على الموقف الغريب كثيرا من الاتزان . على الرغم من أنهم كانوا يقفون ويضحكون أو يستمعون لبقية حكاية وأحيانا يسرعون .. وأحيانا يبطئون .. قال البدوى وهم يصعدون فى شارع مرتفع :

— اسمعى يا آنسة ..

فردت باحتجاج جميل :

— محتجة .. أنا سيدة ..

— حتى الآن لا أستطيع تصور هذا .. يخيل إلى أنك لم تخوضى التجربة التقليدية وإن كنت سيدة ..

ضحكت أسرار فى حياء نوعا :

— ربما كنت على حق (ولمست كف صلاح وضغطته) فقل ما تريد الآن ..

ــ أنت عدة مشروعات لشخصية لم يكتمل أى منها .

زجرته بلطف قائلة :

ــ .. أنت قاس .. مبالغ .. مخطئ ..

نفخ من أنفه واستطرد :

ــ لكن كل هذه المشروعات غير المكتملة كونت مصادفة شخصية جذابة .. لا ترضى كل الناس ولا تحمل اسما .. لكنها حلوة .. مجموعة من مشروبات كونت من باب الصدفة (كوكتيل) لذيذا .. هل عرفت الحب ؟!..

هتف صلاح :

ــ يا له من سؤال !..

ردت أسرار :

ــ جدا .. لكنه هو الذى لم يعرفنى .. (ولان صوتها فى شبه انكسار) ولذلك أنا محتجة عليه .. أخطف براعمه من على كل شجرة وأفركها بين كفى ..

سأل صلاح :

ــ لكنك أحيانا تظهرين حنونا ..

قالت :

ــ الشفرة تحلق وتذبح .. عندى كل أوليات المتعة لكننى لا أستطيع أن أقيم منها بناء .. الفرق كبير بين أوليات المسكن وبين المسكن نفسه .. أنا لا أريده يستأثر لكن المهم أن يكون مسكنا .. كان لى زوج و لم أعش معه طويلا .. خدعنى .. منحنى لقب سيدة وتركنى .. يشكر على كل حال .. فعن طريق هذا اللقب أبكيت ناسا وأبكانى ناس .. وعثرت رجلى بتجربة .. وفقدت كثيرا من الأشياء التى يحترمها العصر لأن العصر نفسه هو الذى أخذها .

وفجأة شدت صلاح من رباط عنقه حتى كادت تخنقه وهى تقول كأنها تقاضيه :

ــ تعال .. أنت تتكلم عن حرية الفلاح .. فهل تظن أن امرأة مثلى أخذت حريتها ؟

همس مأخوذا :

ــ إذن فما كل هذا ؟!

ــ لا تكن مثل العمدة الذى يدخل مرقصا ذات ليلة ولأول مرة فى حياته فيعود إلى قريته ويقول : لقد رأيت نساء القاهرة .. تكلم يا أستاذ بدوى .. كيف ترانا ؟!

ــ أرى أنك أحسن مثل يعبر عن عبودية المرأة .. وكل عمل من أعمالك شكوى غير مكتوبة تقدمينها لحاكم غير مسئول .. والمرأة التى تمسك بالفأس الصغير فى الحقول تملك جزءا من الحرية .. صغيرا جدا لكنه جزء من الحقيقة الكبيرة .. أما أنت فعندك قدر كبير من المجوهرات الزائفة ..

سأل صلاح :

ــ إذن فمتى تملك حريتها ؟

ــ عندما تنسى هذه الكلمة .. هل ننطق بكلمة الصحة ونحن أصحاء ؟

صفر صلاح كالبلبل .. وجرت أسرار شوطا أمامهما .. ووقفت تلهث حتى لحقا بها . وعندئذ نظر البدوى فى ساعته وقال بهدوئه الذى لا تخدشه حادثة :

ــ لقد تأخر الوقت .. وعلينا أن نعود إلى بيوتنا مشيا على الأقدام ..

٩

ظهرت الصحف اليومية طوال هذا الأسبوع وهى تحمل نقدا محرقا لحزب الفلاح : لأن المجلة الجديدة وصاحبها بدا نشاطهما فعلا .. وبين المخلصين يوجد الزائفون ولا يخلو المجتمع الزائف من المخلصين .. ليدور الفلك . كان الأستاذ التهامى يجعل من هذا العمل (لعبة الشهرة) وأخذت الأيدى التى تمتد فى الظلام فى هذا الوقت إما بالخناجر وإما بالمال .. أخذت تمتد إليه بالمال . هذا فى الوقت الذى كان فيه النجومى وصديقه يكتبان بعصارة القلب كأنهم ناسون أن الأمر هزل فى هزل . كتب صلاح مقالا بعنوان « قبر بلا شاهد » .. وآخر بعنوان « وصايا المساكين » ، وكتب البدوى قصائد من الشعر الحلمنتيشى يبدؤها ببيت لشاعر مشهور ثم يبنى عليه كلاما لا يخضع إلا للوزن والمشكلة .. وبدأت دار المجلة يتوافد عليها شبان يبدو عليهم الجد . وبدأ صاحب المجلة بمرور الأيام يخاف من المستقبل . فالتعاقد بينه وبين حزب الفلاح زائف لكن العمل الذى يقوم به غيره كان حقيقيا . وبدأت الحقيقة تمتد حتى كادت تطوقه وعندئذ أحس بالقلق . فدعا البدوى والنجومى إلى بيته ذات يوم لغداء عظيم ثم أراهما مقالا لم يكونا قرآه فيه اقتراح بأن « يذهب أعضاء هذا الحزب إلى الريف ــ إن كانوا رجالا ــ ويسمعوا رأى الذين يدافعون عنهم . رأيهم فيهم .. على شريطة (كما قال الكاتب) أن يحملوا من الهدايا بعض ما يأخذون هم من هدايا ، وأنه ليس من هم هؤلاء إلا تعكير سكون الراحة للنفوس القانعة . ألم يكف أن الله منحهم الشمس الساطعة

والحقول الخضراء ؟ » .

وكانت المجلة هي الشيء الحقيقي فى الموقف كله .. ففرض صاحبها عليها الحجز . فنحى كثيرا من الأعمال . مما جعل البدوى وصلاح يشعران بشعور جديد عبر عنه البدوى ذات مساء فى بيته ليلة قال لصديقه :

— نحن نطلق الهتافات لغرض غير حقيقى . فإذا بدأ الهتاف يصنع (الغرض) غيرنا الهتاف خوفا منه . حفلات زار .. المقصود منها الضجيج .. والضجيج فى ذاته يتحول إلى لذة مستقلة بمرور الوقت . كعادة الصفير فى دور السينما الشعبية .. وقد بلغنى والله أعلم أن رئيس حزب الفلاحين نفسه احتج على الأستاذ التهامى صاحب المجلة .

— لماذا ؟!

— لأنه أخذ الموضوع جدا أكثر من اللزوم .

— إذن فأين الحقيقة يا أخى ؟

ضحك البدوى ضحكة فيلسوفة .. ضحكة لا يصنعها رسام .. صنعها الألم وتحمل الألم والنظرة المتعالية .. وبرقت عيناه النديتان خلف النظارة .. وقال بصوت هادئ جدا :

— الحقيقة .. إن كنت تريدها .. عند الأستاذ أحمد رشاد .

— ماذا تعنى ؟!

* * *

أعنى أنها تعريف .. وصف .. تاريخ .. فى دائرة المعارف الجديدة التى يعملونها .

كلما مر صلاح النجومى على النافذة المعهودة فى شارع الخليج فى أخريات معظم الليالى كان يراها إما مضيئة أو مطفأة .. لكنه كان يتريث أمامها ليناجى نفسه :

« لقد كبرت » شيء مجهول يخرج من بين قضبانها يحدثه عن العمر كما تتحدث الساعة عن الوقت . لكن الساعة تعيد ما تقول كل يوم .. وهذه النافذة تغد أرقاما لا تتكرر . لها عبق غريب وإن خيم الظلام على الحيطان حولها . فهذا البيت من ضمن البيوت التى يفتح بابها فى الشارع الموازى وشبابيكه من الخلف .

وأحس بحاجة إلى التوقف ، كان فيها نور والليلة من شهر ديسمبر .. ضباب خفيف وبرودة ووقت متأخر ، ولم يدر لماذا ذكر (أسرار) .. هام معها كثيرا وحده وتحدثا فى كل شيء وطوق خصرها بذراعه وقبل يدها وهو خائف ولكنه لا ينساها .. لعله يحبها . خيل إليه أنها ستنظر إليه من النافذة .. هذه .. أحس بهموم الجسم وحده فى هذه اللحظة ، ونسى الاشتباكات المتصلة بينه وبين صاحب المجلة وشفاعات البدوى . نظر إلى النافذة فسمع نفسه يهتف : « لقد كبرت » وجاءت فى هذه اللحظة النغمة المعهودة ، صوت لامرأة يميل إلى الغلظ مشروخ متراخ :

ـــ متوحش !..

وتكررت الكلمة وهى فى طريقها إلى التلاشى فأحس بالبرد الشديد .. مشى يرتعد .. و (أسرار) لا تفارق خياله ..

وعاوده رأى صديقه فى الحياة كلها : « العمل فى المجلة أصبح مثل الإقامة فى بيت الطاعة .. زوج غنى وبيت كريه ضيق وحب مفقود . وعلى أصحاب الضمائر أن يتعذبوا . ماذا تعمل إذا خيرت بين أن تدوس وأن تداس ؟! وهأنذا أجوع وحدى يا صلاح وأشبع وحدى ، جوعى عاقل وشبعى شاكر .. حزب الفلاح يا صلاح لا يقل رفاهية عن نادى اللوردات .. إنك تحب السيدة أسرار ولكنك تقاوم .. وأنا شخصيا أحبها .. وقد عرفت أننى من

الزاهدين فى النساء .. رأيت المربية ذات يوم وأبى يقبلها بطريقة أذهلتنى .. كانت أمى غائبة فأصبحت قبلتها على فمى فى مذاق زيت الخروع ، كنت أتعذب بالاثنين وكانت هى التى تسقينى إياهما .. ولم يتغير الموقف كثيرا فى نظرى حتى الآن .. ولما رأيت أبى يمشى على ساق خشبية اعتقدت أن المربية هى التى أخذت ساقه الأصلية . وما دام هناك امرأتان فلتأخذ كل منهما ساقا .. زجرنى أبى حين قلت له هذا وأنا أيامها طفل غرير . أما السيدة أسرار فهى مستعدة أن تعطيك . تحب عقلى وتعشق شبابك .. أنت ومن هم أصغر منك نيط بهم تغيير المجتمع . وإذا كانت أسرار تكره الرءوس البيضاء فما ذلك إلا لأنها لا تزال غير صديقة للحكمة .. إنها ذات إحساس يجرى فيه الألم واللذة فى خطين متوازيين . أتصورها تبكى بحزن ما دامت فى أحضان رجل . تكره التحدى ولا تحب المسالمة .. ألا تذكر يا صلاح يوم جاءت إلينا فى المجلة بملابس خفيفة ونحن فى الشتاء ، وكانت يومها ترتجف من البرد كى تحس بحرمان المحرومين ؟ وفى اليوم التالى كان عليها معطف من الفراء . أفكارها نفسها (هائمة على وجهها) كما فعلنا نحن الثلاثة فى العباسية الشرقية .. وليس الهيام على الوجه رديئا دائما .. كم خلق من الأبطال .. يطلقون على « أبو قردان » اسم صديق الفلاح فهل ليس للفلاح صديق غيره ؟!

يا للحسرة .. أنت يا صلاح وأبو قردان فقط ؟.. لن أتزوج يا صديقى . أنت تعرفنى منذ خمس سنوات وتعرف أنى أستطيع أن أكون أبا حتى لمن هم أكبر منى . وسألتنى عن مشكلة الجنس بالنسبة لى فقلت لك : إن ثمار جوز الهند ذات العصير والشحم تجف بمرور الزمن .. أما أنت فإننى أرى مستقبلك .. شارع الخليج يا صديقى هذا أصله كان ترعة .. ثم ردمت .. سار فيها الترام بعد القوارب وتكاثر فيه الآدميون بدل الأسماك .. وأكل بعضهم بعضا

كذلك .. الذى يتمرد على الفقر لأنه كان فقيرا ربما استرخى إذا اغتنى .. أما الذى يتمرد على الفقر وهو غنى فلن يسترخى إذا افتقر .. وهذا مولد مشكلة .. وأنت يا صلاح تمردت على الفقر بلا تجربة له ولا خوف منه .. فماذا سيكون منك ؟.. قلت لك إن شارع الخليج أصله ترعة .. ثم ردمت .. يا بنى » .

وأفاق صلاح وقد وصل إلى ميدان باب الخلق وقد خلا الميدان ، ووقفت دار الكتب فى وسطه بجدرانها المخططة مثل مسجد بلا مئذنة .. وأحس صلاح بالزمن .. ورأى أفكاره تموج .. تذكر موسم دود القز .. وهو غلام فى المدرسة .. وعلبة الكرتون التى يحمل فيها هذا الشىء .. والحركة .. والحرير .. والشرنقة .. والموت فيها .. وانبعاث العذراء .

* * *

« أنت تكتب من أجل حرية الفلاح وقد عملت أنا من أجلها لكل الناس بلا قلم » . قالت أسرار هذا وهى تضغط على معصم صلاح بكل قواها . وهما معا فى أحد الكازينات تظلل المكان جذوع النخل المشقوقة عليها نباتات غزيرة الورق .

كان أمامها شراب مع العشاء المتأخر . وصلاح يشرب القهوة ، كانا قد تحدثا كثيرا وأثنت على كتاباته على أنها مثل البنادق فى الحروب الكبرى . وعلى أن البنادق قد يكون لها من الأهمية أحيانا ما للمدفع ، وقد يتفوق الخنجر أحيانا على الاثنين . أما هى فأخذت تباهى بما لم يعرفه : « .. عملت أنا من أجلها لكل الناس بلا قلم » .. وسألها :

ـــ وماذا كانت النتيجة ؟.

ـــ رأيت نفسى جادة مع قوم هازلين ، وشجاعة مع جماعة من الجبناء .

ــــ هل أحببت أحدهم ؟

ــــ أحبنى أحدهم .

ــــ أى ى ؟!.. طيب .. وماذا يحدث لو أحببت شخصا لا يحبك ..

ــــ غير ممكن أن أحب من لا يحبنى ..

ــــ مجرد فرض .. لأنه يحدث لنساء غيرك ..

قالت بإهمال وهى تلعق شفتيها :

ــــ أخنقه ..

هز رأسه مستفهما فى صمت أبكم فاستطردت :

ــــ أستدرجه إلى مكان ما وأخنقه بـ .. بشفتى ..

ــــ أنا بالنسبة إليك كذلك ..

فتحت عينيها مثل كبير يخيف طفلا :

ــــ هل تريد امتحانى .. لا .. أنا أحبك . لكن لم تصل بعد عندى إلى الدرجة التى أضعف فيها أمامك ضعفا كافيا ..

ــــ ومتى تبلغ المرأة هذه الدرجة ؟

ــــ عندما تتلاشى الدرجات .. أنت لا تزال فلاحا .. تحملق فى بعينى صقر .. تخيفنى .. أستطيع أن أنومك بعينى وأخلع عنك ملابسك وأتركك عريانا .. عندما تتلاشى الدرجات لا أتورع أن أقولها بنفسى ..

سكت . ظل يحملق فيها بعينيه الفاتحتين والهدب الذى يلمس الحواجب . وبدا أمامها بقامته الطويلة شيئا يحب حقيقة لكنه لا يزال فى مجال الصهر .

ــــ سآخذ عربة عند عودتى فهل تحبين أن أوصلك إلى بيتك ؟!

قهقهت وطوحت جذعها .. وهناك خصلة شعر على خدها ، ومدت رجلها ولكزت رجله ، ثم قالت باستخفاف :

— أنت الذى توصلنى يا ابنى ؟! هىء هىء .. أنا التى أوصلك .. حتى لا يعتدى عليك أحد فى الطريق ..

شعر صلاح بضيق .. دعاباتها كثيرة لكن هذه آلمته ، فزم شفتيه مصمما ونهض فى صمت .. ونهضت .. مشيا صامتين .. أدركت أسرار ماذا يجول بنفسه . ولما ركبا سارعت فقالت للسائق : « شارع حسن الأكبر » فصمت صلاح . وطوال الطريق لم ينطق بكلمة . وكان يسمع همهمة ضحكة قصيرة لها . وعندما يسقط النور فى حجرها كان يرى كفها الجميلة .. كان فى كفها سحر لا يعرف . يد هى فى الحقيقة من صنع فنان . لثم أناملها ذات يوم فسكر . وامتدت ذات ليلة فربتت خده . وعملت هذه اليد من أجل حرية ناس وامتدت فدفعت عن جسم صاحبتها مخاطر مفاجئة . وتلوثت بالحبر والدموع . وكانت قابضة على شىء غال وخطف منها .

ووقف محرك العربة . نزل الاثنان . وانصرف السائق . مد صلاح كفه إليها يسلم فلم تمد يدها .. فاستدار داخلا فدخلت وراءه ، كان مأخوذا ، وفى حوش البيت رائحة جلود والظلمة راكدة .. صعد السلم فصعدت وراءه .

جالت تفحص المسكن بلا مبالاة . همست كطفلة :

— جميل .. أين حجرة مكتبك ؟ فى غرفة نومك .. عظيم ..

ودخلا .. المكتب بما عليه من مجلات وكتب وما فوقه من رفوف قريب من الشباك .. فتحته وأقفلته .. وبعد أن أطلت إلى الشارع . همس صلاح : « مجنونة » ، وجلست على كرسى أسيوطى ومدت جسمها وتأوهت ، ثم نظرت إليه .. جلس على كرسى آخر صامتا وقد حمل رأسه بين كفيه .. كان يعانى ويخاف .. لكنه أفاق على همسها :

— ماذا تقول فى سرك ؟!.. شاب وشابة فى مكان مقفل .. ماذا تريد أن ..

ــ أنت شريرة ..

ــ أنا ؟!.. لا تصب غضبك .. أقصد لا تصب شوقك .. فى قوالب من الشتائم .

هز كتفه :

ــ أنا لست مشتاقا ..

نهضت بسرعة ، ووقفت أمام مرآة الصوان تمشط شعرها بمشط التقطته من فوق المكتب وتأودت ثم رمت بالمشط على الأرض وقالت له ووجهها فى المرآة .. قالت بجد :

ــ تعال .. تعال انظر معى هنا .. سترى معى شيئا غريبا ..

نهض مأخوذا ونظر فى المرآة .. وهز رأسه . ماذا تعنى .. وعندئذ أدارت ظهرها للمرآة ووضعت كفيها على كتفيه ورفعت قامتها فانحنى يقبلها وقد أمسك بها شديدا ..

روائح لا تحصى ملأت الحجرة كأطياف ثملة .. ومن بينها تمثال « قاذف القرص » الرومانى الذى يمثل القوة .. كل هذا رآه بعينيه .. ومن ضمنها حكايات البدوى عن المربية والأب ، وحكايات محمد الجندى عن جنيات الليل ..

حملق فى وجهها ووجهها بين كفيه . فدفعته وتخلصت منه والتقطت المشط من الأرض وأعادت تمشيط شعرها ، ثم ذهبت لتأخذ الحقيبة . نظر صلاح فرأى التصميم فى عينيها .. إنها تريد أن تنزل حقيقة ، فقال لها بمرارة :

ــ عرفت كل ما تقصدين ؟!

ضحكت ضحكة مخطوفة وقالت مستعجلة وهى تقطع الطريــق إلى الباب :

ـــ أردت فقط أن أريك فى المرآة منظر الحيوان وهو يخرج من جلدك .. لا تحاول أن تلمس ثيابى ..

* * *

لم ينم بعدها حتى دبت حركة النهار ..

وفى صبيحة هذا اليوم دخل دار المجلة فألفى البدوى هناك على وجهه ابتسامة المهموم .. كان يعرفها عنه .. ابتسامة تجعل حد زاويتى فمه كأنه متشنج .. وكان ينفخ من أنفه .. ولما رأى صلاح داخلا نهض بطريقة تمثيلية وسلم عليه كأنه شخص غريب لم يره من قبل ، وقال له :

ـــ ألف مبروك ..

ذهل الشاب . وحار بين الجد والهزل . على أنه يعهد البدوى ساخرا ولا يعهده هازلا . سأله بالهمهمة : « ماذا ؟ » .

فقال الرجل :

ـــ نحن الاثنان مفصولان من المجلة ..

ـــ هه ؟!

ـــ قرار معطر برائحة السيجار .. تعال نتوكل ..

ووضع عصاه تحت إبطه بطريقة لم تتغير منذ عرفه . عصاه القصيرة الأنيقة الرفيعة . وتأبط ذراع صلاح وسحبه خارجين من الباب بينما كان الحوش المترب تحترق فيه أوراق فى ركن ناء . ورائحة الكيروسين المألوفة تفوح مع الدخان ..

وكان شارع محمد على مائجا بالحركة .. والجو حار .. فلم يدريا إلى أين يذهبان . كانا مثل شبحين طلع عليهما النهار فزادا ضياعا .

لكن البدوى كان يفكر فى صمت وبين حين وحين تأتى إلى صلاح

نفخات أنفه .. وراودت صلاح أفكار كثيرة .. منها أن يتوظف .. ويستريح .. ثم ذكر أنه لا يبحث عن القوت لكنه يبحث عن شيء أعلى .. وفكر فى البحث عن مجلة أخرى أو جريدة يومية لكن ذلك كان بعيد المنال . خصوصا لأن هذا الرجل الذى يتأبط ذراعه كان جديرا بأعظم مما أخذه الكثيرون .. مواهبهم حناجر أو أيد تنظف المعاطف .

فكر صلاح والبدوى يجره عبر الشوارع أن يأخذ الثانوية العامة من جديد ويلتحق بالجامعة ومن هناك يبدأ مشروعاته .. لكنه ما لبث أن ذكر كثيرا من الجادين منهم الذين كانوا يترددون على دار مجلة التهامي . وأنهم كانوا يشعرون بأن الطريق أمامهم مسدود .. ما داموا لا يملكون الحناجر .. وأحس صلاح والبدوى يجره عبر الشوارع الحارة غير المزدحمة الآن بالناس — أن رواج الرخيص مضيعة للعصر كله . وأن أصحاب العقول والأقلام بين المشهورين فى ذلك الوقت وقع كثير منهم فى فخاخ المناصب أو الانتظار .. فأصبح « لكل ذمة ثمن » .. مثل ذمة حزب الفلاح الذى أغدقت عليه جهات مجهولة معروفة حتى صار فى فخامة لورد ..

وتذكر صلاح ما قالته أسرار من أنها عملت من أجل « حرية الناس بلا قلم » فراودته فكرة أن يعرف هذا الطريق .. ما دام طريق القلم أسود كالمداد .. لكنه سمع البدوى الذى يجره عبر الشوارع الحارة يقول له :

— لا تشق نفسك ..

رد بشرود :

— ماذا تقصد ؟.. أعود إلى قريتى .. عندنا فطير ولحم كثير ونساء .. وحياة لا تعرف الحركة ..

ضحك ضحكة سطحية لا تعنى شيئا . ورفع إليه عينيه اللتين تحملان

طمأنينة السلام :

ــ الأستاذ أحمد رشاد سيرحب بنا .

ــ هل تظن ذلك ؟!

ــ سنرى ذلك مساء اليوم ..

* * *

ولم يأت المساء بسرعة كما هى عادة كل يوم . تلكأ كثيرا فى نظر صلاح .. وفى الساعة الثامنة دخلا الدار العتيقة .. كانت تضج بالحركة عندما وصلا إلى الصالة العليا وأصوات الآلات الكاتبة تتدفق من الأبواب المفتوحة ، ورءوس بيضاء تبدو خلف المكاتب .. تذكر صلاح (أسرار) . إنها لا يعجبها هذا .. « إن أسرار عدة مشروعات ناقصة لعدة شخصيات » . كما قال عنها البدوى .. وفى المكان تحت ساعة الحائط تمثال لسقراط .. على قاعدة من شيء فى سواد الآبنوس .. والبندول فوق رأس الفيلسوف .. يتحرك كأنما بتيار من تحته . وبجانب هذا المنظر باب الأستاذ أحمد رشاد .. مقفل .. لكن ليس عليه حاجب .

طرق البدوى ودخل ووراءه صلاح . كان الرجل مستغرقا فانتبه ورحب بالداخل ترحيب من يعرفه . ولم تطل الابتسامة ولا الترحيب وحملق للشاب من خلف النظارة مثل سؤال يمتحن . خفق قلب صلاح . ولأول مرة يرى العلم المجرد المتقشف بعد صلف التهامى وزخرفته . ودخل البدوى فى الموضوع : « يسعدنى أنا وزميلى أن نعمل معكم فى دائرة المعارف » .. رد ووجهه على ورقة وعيناه قريبتان منها وفى يده قلمه وابتسامة على فمه وانية :

ــ للاستفادة أو للوظيفة ؟..

قال البدوى :

— الوظيفة المفيدة أحسن من « أكل العيش » ..

— فهمت غرضك .. وعلى كل حال العمل عندنا بالإنتاج .

رد صلاح بسرعة :

— أما أنا فسأتعلم .. لا أريد إلا أن أتعلم ..

حملق الأستاذ فيه وهز عوده الطويل وسأله عن اسمه وبلده فعرف عنه شيئا ما . فزاد ترحيبه .

* * *

على أن صلاح وإن كان يتعلم فهو يعيش فترة من اليأس أو على الأقل فى حالة مثل حالة تراجع الزمبلك حين يثقل الحمل عليه .. ومن كتب التاريخ والسير وكتب الأدب والتراجم ودوائر المعارف عرف صلاح أكثر مما يشتهى .. ويمشى الزمان منوما بالنسبة إليه . يحلم بما يعيش فيه لا بما يريده . وأغدق عليه أخوه من المال أكثر مما يطلب .. ربما بقصد قروى يعرف صلاح من أمثاله الكثير لكنه مثل المقامر الذى يخسر بإرادته . فهو بهذا يدخل السرور على نفسه وعلى نفس الآخر .

وأصبح حى السيدة زينب وأمسياته ، وحى عابدين ورائحته ، وشارع الخليج ومنعرجاته ، و (أسرار) وتقلبات قلبها ، والبدوى وعظمة كل ما يفعل ، ومطعم الشواء ، وهيكل دار الكتب المخطط ، وشارع حسن الأكبر وانحداره ، ورائحة الجلد فى أسفل المسكن ، وشارع محمد على وبواكيه ، وقصص أبطال التاريخ والفكر فى فن العرب والأجانب ، والحب الغامض — أصبح كل هذا عالما جديدا يحس فيه صلاح بنوع من الطمأنينة . ليست طمأنينة الإقامة الدائمة بل سعادة الرحلة الممتعة .

وكانت سعادته عظيمة حين نشر فى إحدى المجلات الأدبية أو صحف

المساء بعض تراجم تحمل اسمه . مع تلخيص وتعليق . أحس بالميلاد . وقال يومها لصديقه البدوى : الميلاد الحقيقى هو ما يشعر به المولود . وتعانقا . وعملا جنبا إلى جنب . ونشرت صحيفة مسائية صورتيهما معا فوق خبرين . ورأى صلاح ما يفعله الدأب والمثابرة . وتصور كيف تتكون الجزائر وسط الأنهار . الطبيعة تعلمنا العمل . الصبر والمثابرة .

بقى عليه إذن أن يشق لنفسه طريقا أوسع . لكنه — وليس يدرى لماذا — أحس فجأة بالحنين إلى (أسرار) . إنه لم يرها منذ أشهر .. وهو الآن شخص معروف إلى حد ما . مثقف .. يستطيع أن يتكلم فى أشياء لا تحصى .. أعماق الكتب وطول الليل .. والنظر القوى والشباب . وصدقه الذى يصفق له . وعدم احتياج للمال .. « ما أجمل هذه المواد لكى تبنى منها نفسك .. » هكذا قال البدوى ، لكنه يريد أن يراها . تلك المرأة التى تمثل عدة نساء فى عدة صور .. وتخيل نفسه معها فى قارب على مياه المنزلة .. والليل مقمر .. وطيور غريبة الصوت توقوق بين خمائل البوص . وهو يقلد لها صوت البلبل .. وهى تغنى .. بصوت لا يبدو جميلا لكنه عصير امرأة .. صوت البدوى فى الغناء أجمل منه .

كانت تمر عليهم فى دائرة المعارف بين حين وحين .. ومعها حقيبة أو أوراق ثم تجلس . وتسلم بسرعة ، وتتهكم على الرءوس البيضاء وتقول لصلاح : « بعد سنة جديدة .. فقد مر عليك هنا ثلاث سنوات . ستصبح شائب القلب . دخلت الدير يا ابنى » .. وتهز جذعها ورأسها بالضحك وتنصرف فجأة كشأنها . تجلس طويلا طويلا وتنهض كأنما نسيت شيئا أو لتلحق بقطار .

* * *

(للزمن بقية)

وكان الليلة خارجا من المسرح هو وصديقه البدوى .. فرأياها تسلم على شخص كبير السن ، ودعته باحترام وتركته فمشى يتلفت ، قطع الميدان فى لهوجة من يريد أن يعود سريعا ، ومشيت هى . حاذت سور حديقة الأزبكية متجهة إلى العتبة .. والوقت بعد منتصف الليل .. خريف .. ونسيم يهلل لمقدم الشتاء ويلعب بشجر الحديقة .

حاذت الأكشاك التى تبيع الكتب ثم تريثت عند أحدها . لا لسبب واضح . هتف صلاح لم يناد . قلد صوت البلبل فى هدوء رائق فالتفتت وعرفت صاحبه ، عادت تقابلهما كما يفعل تلاميذ المدارس .. « فى أى خمارة كنت يا فلاح » .. وضحكت تهز جذعها ، فمها مفتوح بالضحك لكنه ساحر . والبدوى يطوح العصا ويسأل من أين أنت راجعة ؟.. وساروا .. هائمين .. يتكلمون فى كل شىء حتى المسرحية .. وقالت أسرار لصلاح : « لقد تغيرت .. عقلك تضخم .. » وقهقهت .. وسأل صلاح :

ـــ من كان معك ؟

ـــ هل رأيته ؟

ـــ وكذلك هذا الرجل ..

ـــ أحد الموظفين فى الشركة .. رجل كثير الهموم .. خيم الحزن على قلبه لأن زوجته خائنة فرأيت من الإنسانية أن أستجيب لدعوته للمسرح .. ربما .. عاد سعيدا .

كانت تتكلم بطريقة طيبة تدرس أدق ما فى الإنسان . رجل أو امرأة على حد سواء وتقول بلهجة فخور « عاد سعيدا » ، وهدوؤها مثير . ونفخ البدوى من أنفه . وزمجر صلاح وهو يعاود السؤال :

ـــ كيف جعلته يعود سعيدا ؟!

ردت ببساطة :

ـــ رأى المسرحية معى ..

سأل صلاح بخبث :

ـــ وعندما أغمى على البطل ورقصت البطلة حوله .. فى دائرة سحرية فأفاق .. كتعبير عن العبث . ثم قبلها .. فماذا فعلتما ؟!.

ـــ أنت خبيث يا صلاح .. لو كنت جوارى ماذا كنت تفعل ؟! أخذ كفى من حجرى وأمسكها .. لم يفعل غير هذا .. (وضحكت مثل مخمورة) نوع من التكفير عن سيئات الماضى يا ابنى العزيز ..

قال البدوى :

ـــ ومن أى نوع يكون هذا التكفير ؟

قالت وكأنها تعد حروف كلماتها :

ـــ من نوع .. تكفير .. قاطع .. الطريق .. حين ينضم لقوات الأمن ليلة واحدة .. تصدق بالحرام لوجه الله ..

* * *

سيارة التاكسى تقف بهم الثلاثة الآن عند مدخل الحارة التى يسكنها البدوى .. نزل الرجل وحيا .. وعادت بهما السيارة . هتفت أسرار بعد أن مضى الرجل قائلة للسائق هذا العنوان « شارع حسن الأكبر » ..

عاد الصمت والهمهمة مثل الليلة المعهودة . فتحت الحقيبة ففاح عطر .. وسمع تنهدا .. كل منهما الآن فى جانب .. والنور ينصب فى حجرها على كفها الساحرة . ونظرات يراها مع بقايا ضوء تحمل شيئا غريبا .. ولم يدر صلاح لم عاوده نور القمر على سطح البحيرة وأصوات الطيور ، حتى وقفت السيارة ، وكانت هى قد سبقته إلى الباب :

ــ هل عندك شيء يؤكل ؟

رد بتلعثم :

ــ نعم ..

ردت بخبث :

ــ أتعشى وأنزل ، لأنى مستعجلة ..

ــ وهل هذا معقول ؟!.

ردت بخبث أكثر :

ــ أنت شاب غير طيب .. إذن ماذا تريد ؟! جئت لأتعشى فى بيت ريفى ..

ــ ....

ــ إننى أعانى هموما ولو أنى حملت الهم الليلة عن ذلك الرجل الكبير ..

كان ساعتئذ يدير المفتاح فى الباب .. ودخلا .. وبسرعة عظيمة أتى بطعام كثير من المطبخ وجلسا . كان بادى الاضطراب لكنه لم يكن مختارا ، وضغطة البدوى على كفه وهو يودعه آخر الليلة كانت لا تزال كأنما توجعه . وفورا بدأت تأكل . بعد أن خلعت جاكتة التايور الخفيف .

ــ لعلك لا تصدق ما قلت ؟!

أفاق صلاح فى هذه اللحظات . كل حاسة من حواسه استردت حالتها العليا .. كان يحس أنه أمام تجربة خارقة . لها وجهان . إنسانى وغير إنسانى . وشعر أن تعاسة فى غموض الليل تخيم على نفسها كتلك التى لا يستطيع المصباح السحرى المتحرك مع جسم الراقصة أن يغسلها عن نفسها . وعادت أسرار تكرر :

ــ لعلك لا تصدق ما قلت .. إننى أعانى .. هـ ..

ـــ أنا مستعد أن أستمع إليك حتى الصباح على شرط أن أرى فيك شخصية الفتاة التى كانت تلبس الثياب البيضاء ذات يوم ..

وقفت عن المضغ وحملقت فيه . أما هو فقد ارتبك . عاودته حكاية اللص الذى وضع أصبعه على الزر ليشعل النور فيرى ما يريد فإذا بالزر زر جرس .. وذهل حينما رأى الحوادث تتداعى :

ـــ من قال لك إننى كنت ممرضة ؟

ـــ الناس ..

ـــ أنا لا أخافهم . بعد الطعام سأحكى لك ..

ـــ عرفت ..

ـــ ماذا ؟

ـــ كنت ممرضة تعالجين الناس .. وظيفة .. كما كان أبى عمدة يحكم الناس .. ماذا فى هذا لكل وظيفة ؟

رددت فى أسى :

ـــ أبوك كما سمعت كان ظالما .. فهل أنت مثله ؟!.. آه .. لقد شبعت .. اذهب أيها (الجنتلمان) فهات لى فوطة مبلولة أمسح بها يدى فلست أريد أن أقوم .. (ومن بين أجفانها المغمضة تماما قالت) : أشكرك .. (وفتحت عينيها) أهنيك .. تغيرت .. هل يعيد الكيان الاجتماعى بناء قامة الرجال ؟!.. لست أنت الذى رأيتك من سنوات .. أنا أريد أن أرتاح . فلتجلس صامتا ولا تتكلم .. استمع فقط .. كما يفعل الأطباء مع مرضى النفس . سأفترض أنك غير موجود وأترك ما فى نفسى يتدفق .. بقدر ما أستطيع .. أنا أعلم أنك لا تشرب الخمر وكان هذا فى صالحى .. وبعد أن أفرغ من كل ما أريد قوله يأتى دورك .. قل .. أو تصرف .. وإذا كنت أنا قد حملت هم رجل وحملت

أنت همى (وبضحكة) فلك أجران عند الله .. هل ترى فى هذا وقاحة .. اهـ .. ما أحلى أن يغمض المرء عينيه ويفكر بصوت مرتفع وكأنه ليس معه أحد .. وأخيرا يفيق فيرى .. آه ..

رائحة مسكنك فيها عرق الرجال .. وليس فيها عبق النساء .. تعطره الليلة فقط .. مجتمعكم الوغد خلط الحرام بالحلال لأنه يبحث عن (الفايظ) .. أنتم تستعملونها فى الريف بمعنى (الربا) .. أعرف هذا .. وليس الربا فى المال وحده ولكنه فى العلاقات حتى بين الرجال والرجال .. منافع .. فتحتم لنا باب الجرأة والإهانة .. كل رجل منكم فى خياله امرأة غير التى يعاملها ... المرأة (مركز الدائرة) شيء أصيل وأساسى لكنه محاصر .. (محيط الدائرة) حوله ملىء بالمتناقضات .. لقد عشتها مثنى وفرادى وجماعات .. وأنتم فى دائرة المعارف تبحثون عن تعريف للحب .. منذ أكثر من سنة .. (هىء هىء) فى كم سنة ستعرفون الحرية ؟.. إن تعريفها محتاج إلى جيل .. أما تعريف الحرب فلن يأخذ منكم سوى عدة دقائق ؟!. لماذا .. كل هذا فى حرف الحاء .. وهل تستطيع يا ابن الحاكم أن تعرف لى كلمة حكم أو حكمة أو حركة أو حلمنتيشى ..

(الحلمنتيشية) يا دكتور صلاح هى مدرسة الفن والأدب والسياسة والأخلاق فى هذه الأيام .. سأسكت قليلا ثم أفتح عينى .. لأراك فى مكانى وقد أحضرت لى بيجاما ألبسها لأنام تحت اللحاف حالا .. لأننى أرتعد .. وعلى كل حال فأنا نصف سكرى فقد شربت عدة كئوس مع الرجل الذى كان معى فى المسرح ولم نتعش إلا خفيفا ، كنت جائعة هنا .. وشبعت .. تعال شم نكهة الخمر التى لا تشربها .. ثم أطفىء النور لتحمل همومى .. وما فوقها من هموم حملتها عن إنسان اكتشف أنه مخدوع فكاد يموت ..

آآاه ..

١٠

« من الممكن أن أعيش الآن من كسب يدى وليس من إيجار أرضى .. سقط ميراث النجومى اليوم من حسابى .. آه .. خطابات من ريف المنصورة تأتى إلى مشيدة بما أكتب .. اليوم أحس كأننى زرعت البرارى . لكن أخى طه يرى كل هذا باطلا .. ومن وجهة نظره : « ماذا تفعل كلمات كتبت فى جرائد يلمع بها زجاج النوافذ فى المدن ومصابيح الجاز فى الريف ؟! » .. عندما تخضر الأشجار يظن الناس أن هذا قد حدث فجأة لأنهم لم يروا إلا الجزء الأخير مما ظل يحدث وهم لا يشعرون . راودنى ناس كثيرون أن أسافر إلى الخارج لكننى لا زلت أذكر الليالى الأليمة التى نمتها فى قاع السفينة فأخاف .. وفى يدى الآن سلاحان أستطيع بهما أن أعمل عملا ما . القلم والمال . أشعر وصديقى البدوى ينظر إلى أنه أحيانا يتحول نظره إلى إكبار ثم يتحول إلى خنوع ولو لوهلة قصيرة فيحز هذا فى قلبى .. والعمر يجرى به ولا ضمان له .. مرض ليلة وكنت إلى جواره فبات يهذى ثم قال فى ساعة صحوه : « يا ابن النجومى ابن لى قبرا ولو مثل قبر محمد الجندى .. أحيانا يتأ لم الحى حين لا يعرف أين سيرقد أخيرا » . ثم قهقه كأنما يسخر من رجل غريب .

أحس الآن فى هذه الفترة وقد بلغت الثلاثين أننى إسفنجة غمست فى سائل له قوام وشربت وتشبعت .. وفجأة أحسست أننى آخذ من السيدة (أسرار) أكثر مما تظن هى .. فمن كل مشروع ناقص لكل شخصية تحملها

هى تمتعت أنا بعدة شخصيات فى هدوء المتأمل وصبر أهل الريف ، ولذلك أستطيع أن أقول إننى أحببتها غير خائف ، فعندما تلقانى بالشخصية التى لا أريدها ذات يوم أعرض عنها .

شخصية المجربة والمجنونة والمستهترة وأطيب النساء كل هذا فى جلدها .. ليرحمها الله .. لا تظن أنها ماتت .. ليرحمها الله .. ففى بعض الليالى تبتهل وتصلى .. وفى بعضها تشرب .. وأحيانا تؤكد أن قلبها لم يعرف الحب وأنها لا تزال عذراء لأن العبرة بعذرة الروح .. وفى ليلة شتاء طويلة قد تبيت هلوكا .. وقد عاشرت فيها كل هؤلاء .. وقال البدوى فيها قصيدة قرأها عليها . غازلها ونقدها وخدش حياءها فى القصيدة . وحفظتها أسرار . قالت لى بعض أبياتها وهى فى حضنى فأحسست أنها مع رجلين فى هذه اللحظة . ليرحمها الله .. إنها من دواعى الأسى والنشوة فى حياتى .

محمد الجندى يعبر عن طائفة من الناس تطلب الحرية بصفاء ومواصلة كمن يبتهلون إلى الله دائما عقب الصلوات .. والسيدة أسرار طائفة من الناس تطلب الحرية بجزع ولهفة وصراخ يجعلها تسلم زمامها لمن يقول لها : تعالى فمفتاحها معى . والأستاذ البدوى يبحث عنها فى المعرفة .. حيث يسبح هناك فى أنوارها متحررا من الطموح ومن أثقال كثيرة أخرى . أما أنا فلن أراها إلا فى إطلاق سراح النظرة واللسان واليد .. هذه الجوارح التى رأيتها مكبلة فى قرية النجومى .

سألت السيدة أسرار عن الوسيلة التى دافعت بها قبلا عن حرية الناس .. لم تشأ أن تجيب .. حكاياتها غير منسقة وليس ذلك ناشئا من ضعف خيالها ولكنها ـــ المسكينة ـــ تغالب طبيعة الكذب فى نفسها فتغلبها فتخلط الصدق بالكذب دون قصد . وتحكى مثل مخمور .

وعلى السامع الفطن أن يرتب الحوادث .. إنها مثل الأطفال ــ أحيانا ــ يحكون الأحلام على أنها حقائق لأنهم لا يفرقون بين ما يقع لنائم وما يقع لغيره . فهى تحكى أمانيها على أنها ذكريات . وتحكى ذكرياتها على أنها شيء من الممكن أن يقع فى حياتها . وتقص الواقع المر فى اعتزاز القادر على حمل الأثقال . وقد تبكى لحادث تافه وتضحك وهى تبكى . وقد تقطع الكلام والوقائع فى عنفوانها .

* * *

كان أبوها حلاقا ضنين الرزق وأمها امرأة حسناء . وهى من مدينة طنطا . والأم تعمل خاطبة . وعندما يعلن أحد الزبائن رغبته فى الزواج يحمل الزوج طلبه من الأوصاف إلى امرأته التى كانت تتفوق عليه فى الشخصية . وغالبا ما تتم الخطبة . وكانت أسرار أصغر الأبناء والبنات . ولذلك كانت تحضر مع أبيها وأمها ليالى مولد البدوى حيث ينصب الوالد خيمته الصغيرة لختان الذكور من الأطفال . وتجلس زوجته وقد بدا الإغواء فى عينيها عندما ترى رجلا يبدو عليه الرخاء . ولا تنقضى أيام المولد إلا وقد تفوق دخل هذا الحلاق على جميع زملائه بفضل عيون زوجته .

على أن البنية كانت شديدة الإحساس . كانت ترى غبن الأب واستبداد الأم .. ولم تكن الظروف عادلة فى الجمع بينهما . رجل قبيح الخلقة ضعيف وامرأة حسناء ذات شخصية . وكانت البنية تحب أباها . ولما كبرت شعرت وكأنها زوجة ثانية له تحنو عليه وتحاول أن تدفع عنه وقاحة الضرة . غير أن هذا كله كان فى ضميرها . كانت تكتمه ولا تبوح به . وكرهت البيت وأحبت المدرسة وتفوقت كثيرا .. مما جعل الأبوين أنفسهما يعجبان .. « من أين جاءها كل هذا ؟! » .

وأتاح لها تفوقها أن تتم دراستها الثانوية ..

غير أنه فى خلال مرحلة الدراسة كانت تعمل عملا إضافيا عدة ساعات مساء كل يوم فى عيادة أحد الأطباء بالمدينة كان يعرف والدها ويتردد على دكانه قديما . وكانت تخدم مرضاه نظير أجر يساعد الأسرة ، ولكن هذا لم يعقها عن التفوق . فقد كانت تحس أن كل ما حولها غير منظم وأن عليها أن تنظمه . وتذكر منظر أبويها فى المولد فتشمئز .

ولما بلغت مبلغ الفتيات لم تكن جميلة . وجهها مستطيل أسمر ملىء بالزغب وعيناها واسعتان مليئتان بما يشبه الخوف .. وشفتاها تتحركان أحيانا كمن يحاول الكلام ويتراجع . وكانت تود بينها وبين نفسها أن لو كانت رجلا .. ثم .. تتراجع فى لحظات وتقرر أن وضعها هكذا طبيعى جدا .

ورأت أنه من الضرورى فى حياتها أن تضيف لجمال المرأة وصفا جديدا . ومن هنا بدأت تتخبط .

وكان ذلك عقب نقلتها إلى القاهرة حيث دخلت الجامعة .

وكان همها أن تعرف أكبر عدد من الناس .. وقد حملها هذا على أن تتعلم كيف تكلم كل من تعرف فقرأت وعايشت وعاشرت .. أعجب بها الشذاذ . ورأى فيها العاديون من الناس شيئا طريفا ، أما من هم فوق العاديين فقد رأوا أنها موضع دراسة .

ذهبت يوما إلى مكتب التلغراف وهى طالبة لترسل ببرقية إلى إحدى القرى . كان الموظف شابا حديث السن على وجهه جهامة ووسامة . فقد جاوز الثلاثين .. مشمرا كمى قميصه والوقت ربيع فيبدو فى مظهر من يهم بعمل شىء خارق . ألقى إليها نظرة ففهمها ، ثم أهملها عامدا . كان الوقوف فى المكتب فوضى بلا دور فبرر هذا عمله المتعمد وصبرت ثم احتجت . فلما

رفض احتجاجها ثارت . فأخذ منها البرقية . وقرأ ما فيها ثم ردها إليها بحجة أن هذه القرية ليس بها مكتب تلغراف وأن عليها أن تذكر المكتب التابعة له . و لم تصدق فتأزم الموقف . وكان موعد (ورديته) قد قارب . غير أن كلا منهما فى نقاشه للآخر كان يقوم بعرض لشخصيته بتعمد خفى . وكان هناك إعجاب متبادل لم يحن الوقت بعد لظهوره .

كان رأسه كبيرا للغاية وفى أسفل ذقنه (نونة) تقسم الذقن قسمين ووجهه موردا . يلبس نظارة صافية بيضاء وراءها عينان غامضتان ليستا واسعتين لكن نظرتهما تجرح . وكانت ثيابه الفاخرة تتنافى مع وضعه فى هذه الوظيفة فضلا على أنه حاذق اللسان .. أخيرا نظر إليها وقال لها وهو يمضغ الكلمات : « لوجه الله سأفتش لك عن أقرب مكتب للقرية » وانشغل عنها وتركها غضبى .. ولما انصرفت رأته إلى جوارها فى الشوارع . وتبادلا وهما فى الطريق فى همس بعض ألفاظ تعتبر تكملة لما فات .. للموقف الفائر .

لكنها باتت تذكر ملامحه . المشحونة بالجاذبية والسخرية ، وكانت تحاول جاهدة أن تتخلص من مجاله المغناطيسى .. غمغمته تغلب صوتها العالى .. وتعبيره بوجهه دون كلام يثير فيها إعجابا وتطفلا .

وبعد بضعة أيام مرت على المكتب فلم تجده . وفى اليوم التالى عادت إليه تحمل برقية جديدة باسم قرية جديدة . وكان المكتب شبه خال من الناس . وفرصة (المناظرة) تبدو أوسع مجالا . وكان هو اليوم فى كامل ثيابه فى أبهة وأناقة .. ولما وقع بصره عليها لعبت على شفتيه ابتسامة خفيفة رأت فيها الاستعداد والتوقع ، وضعت كتبها الجامعية على مقربة من عينيه كى يراها . وقدمت إليه ورقة البرقية . وعندئذ رأت نظرته إلى كتبها وما تحمله من استخفاف أعظم فى الوقت الذى كان يبدو فيه متشاغلا بقراءة العنوان . و لم

يلبث أن رفع إليها عينيه . صوبهما إليها وكور بوزه وبسطه فى استخفاف مثير . وقلب كفيه :

ـــ أين هذه القرية يا آنسة ؟

ـــ على مقربة من المركز .

ـــ أى مركز !

ـــ لا أعرف ، فهى كما ترى تهنئة بالزواج لزميلة قالوا إن اسم قريتها كفر الصايغ ..

همس يمضغ الكلمات كالعادة :

ـــ ربما تكون كفر الضايع .. فكرى ..

ـــ هل تعرف أنت هذا الاسم ؟

كان فى هذه اللحظة واقفا وعيناه على كراسة محاضراتها . فأجاب برقة بدت غريبة عليها :

ـــ نعم أعرف هذا الاسم يا آنسة أسرار .. لكن .. بذمتك .. هل لهذا العنوان وجود فى الدنيا ؟!

بدت عليها الربكة فقد اكتشف لعبتها ، وهزت كتفها بدلال وعدم مبالاة . وأخذت منه الورقة التى كان يبدو أنه مشغول فيها بإصلاح العنوان وعند باب المكتب قرأت فيها « كازينور ٦ » .

* * *

ليلة كانت تتناول عشاءها مع صلاح النجومى وهى مسترخية فى هذا المكان وتغمز قدمه بقدمها من تحت المائدة والوقت متأخر ، وترفع وجهها إلى السقف لترى جذوع النخل التى غطيت بالنباتات وتقول له : يا ابنى أنا التى أوصلتك حتى لا يعتدى عليك أحد .. فى هذه الليلة كانت تذكر هذا

الفتى .. أنور .. حين وفدت إليه فى هذا المكان ونمت بينهما العلاقة . كان ينفق عن سعة ويدعى فى شبه مزاح أنه رزق سماوى فأقاربه غالبا ما يموتون دون ورثة وخيراتهم تؤول إليه . وأكد لأسرار أن فيها المعنى العظيم الذى تفتن هى به وهو سحر الأنثى . وحدثها عن كثير من الشخصيات المهمة فى مصر خصوصا فى الصحف .. وأطلعها مرة على بطاقات المعايدات التى تصل إليه منهم فافتتنت به .. وادعى أن عنده من المال ما يكفيه وليس فى حاجة إلى أن يحسن مركزه فى الوظيفة .. وكانت هى تعيش على الكفاف والمساعدات الاجتماعية فعينها فى الشركة التى تعمل بها حتى الآن .

وبمرور الايام اكتشفت أنه غير راض عن الدنيا . وأخذ يحدثها عن المساكين وعن ناس كثيرين يحبونهم ولكن المساكين لا يعرفونهم ، ثم كان حديث مفاجىء ليلة حب .. والقمر يذهب رمال الصحراء وهما سائران على مقربة منها فى مصر الجديدة . وتستدفىء الكف بالكف حين تطبق عليها .. وظل يحدثها عن المساكين حديثا ذكرها بوالدها عند باب خيمة الختان فى مولد السيد البدوى وبأمها وعينيها المغويتين .. وشجار والديها والشتائم عند مدخل الأعياد والمواسم . وصوت المطر فى الحوش المكشوف أمام المسكن ذى الحجرتين الصغيرتين فى الدور الأرضى .

وبكت فأخذها فى حضنه . أحست بدفئه فاستسلمت للدفء . وغطت وجه القمر سحابة رمادية . وخلع سترته وفرشها لأسرار وأجلسها مثل طفلة . وجلس عند قدميها على الرمل . لم يكن لديها ما تقوله سوى الأنين . ولم يكن فى الليلة شىء جديد إلا .. أنها .. صرخت من الألم ..

طيب خاطرها وهدأ روعها . وانكشطت السحابة الرمادية عن القمر وأخذ الرمل يبرق فى عينيها كأنما غطيت حباته بالندى ، وعضته فى زنده عضة

شديدة تأوه لها وكاد يصرخ . فعلت فعل هرة جريحة هاجمها حيوان أقوى فغمغم بكلماته الممضوغة :

— عيب .. نحن من الآن زوجان .. وغدا نسجل العقد ..

وبعد بضعة أيام غدا كل شيء مألوفا ..

ثم قال لها : إننى سأعرفك الليلة ببعض أصدقائى .. وهم شابان وربما ثلاثة ممن لا يعجبهم حال الدنيا مثلنا .. وستتكلم هناك بلغة جديدة ستتعلمينها .. ليست إحدى اللغات الشهيرة ولا غير المشهورة .

الشقة فى حارة جانبية فى حى البنوك والمتاجر ومكاتب المعاملات وسط المدينة .. هناك يظلل الصمت بعد الساعات الأولى من الليل .. وفى أيام الآحاد تبدو الشوارع وكأنها خراب .. خصوصا ليلا .. ولذلك كان الاجتماع دائما يوم الأحد .

ذهبت فى صحبته . قلبها يدق . شمت رائحة قريبة من رائحة ورق النقد القديم وهلة أن دخلت الشارع . وكان هو متأبطا ذراعها بحرص يبدو مبالغا فيه وطنت أذنها كأنما صب فيها شيء : « غدا نسجل العقد » .. وواصلا السير ثم انحرفا . كانت هناك لافتة كبيرة تحت ثلاثة شبابيك كتب عليها بخط مبالغ فى تكبير حجمه « معهد تعليم الآلة الكاتبة » رفع أنور رأسه إلى النافذة وابتسم ونظر إليها . لم تفهم شيئا إلا أنهما سيدخلان هنا . وصعدا الطابق الثانى فى هذه العمارة القديمة ذات الحجرات الواسعة . ثم وقفا يطلان على الظلام .

وما لبث أن جاء أحدهم وقدمه أنور إلى أسرار . كان فى لون شبه خلاسى ويلبس نظارة حالكة السواد جعلتها تعجب كيف يرى الظلام بالظلام . وسلم فى تأزم ، كأنه يعانى ثم جلس الثلاثة . لم يتكلموا . مما جعل الفتاة تزداد عجبا وخوفا .. وكانت الحجرة مليئة بالآلات الكاتبة . على بعضها أوراق وبعضها

فاض تماما . وهناك مناضد وأنابيب حبر وأوراق مهملة مـلأت أرض الحجرة . وسألت الفتاة أنور .. « إلى متى سنظل » ؟.. ونظروا فى الساعة فدق الجرس وجاء أحدهم .

وبعد قليل جلس الشاب الوافد والآنسة أسرار إلى ماكينة الكتابة وليس عليها ورق .. ووقف خلفهما وقال لهما :

ــ ستتعلمان لغة التلغراف . كل عدد من الدقات يمثل حرفا . وهذه هى حروف الماكينة ندق عليها فى فراغ أو نضع ورقا بلا شريط .. هذا لا يهم .. فلنبدأ ..

* * *

« ثم عرفت المقصود ــ بمرور الزمن ــ يا صلاح » ..

واستطردت أسرار :

دافعت عن الحرية بطريق غير طريق القلم كما قلت لك .. وفقدت فى سبيل ذلك أشياء غالية .. وتغيرت أنا و لم تتغير الدنيا التى لم تكن تعجبنا .

فبعد أن يخلو المكتب من الناس كنا نجتمع ونتكلم بلغة التلغراف فى الظروف الحاسمة إذ كنا نتصور دائما أن أحدا يسمعنا . وكان أحدنا يترجم الدقات إلى كلمات .. معه ورقتان . فيكتب كلمة فى كل ورقة على التوالى بحروف مقطعة ، ولكى نفهم نضع الورقتين أمامك وتقرأ كلمة من الأولى وبعدها كلمة من الثانية أما إذا قرأت كل ورقة على حدة فإنك لا تفهم شيئا ..

كانت ليالى يغلفها الخوف . خوف داخلى وخوف خارجى . وكنا نضع علامات معينة على باب المكتب الذى يحوى منشوراتنا لنعلم صباحا ما إذا كان قد فتش بالليل أو لا . كنت آخذ شعرة من شعرى وأقيد رزة القفل بها من الناحيتين ثم نفحصها فى الصباح .

مد صلاح يده إلى شعرها وغمس أصابعه فيه وقال فى ألم :

ـــ هذا الشعر الفاحم الأسود.. ساهم فى كل هذا؟!.. رئيس الحزب الذى كنتم تدبرون اغتياله .. خدعكم .. ها ها ها .. مات قبل أن تنفذوا المشروع فهل أعاد موته إليكم حريتكم أو قد أخذها معه إلى قبره .. وأنتم مع هذا قد تشتتم . لكن لماذا لم تتزوجى أنور ؟!

ـــ سلبنى ذاتى باسم الحب . كان أقوى فخدعنى .. كنت مثل زجاجة مملوءة بشراب فأراقه وتركها فارغة .. لم أعد أنا أنا .. وحين دق جرس الشقة فى وقت متأخر ونحن مجتمعون لم يذهب إلى الباب سواى . كان هناك رجل يرتدى معطفا وجلبابا عرفت منذ الوهلة الأولى أنه من أهل الفن .. زمار مثلا فى فرقة موسيقية من شارع محمد على . أسنان ذهبية وأوداج منفوخة . لكنهم خافوا وحسبوه من رجال الشرطة .. وكان يسأل عن فتاة له تتعلم فى المكتب ولعلها تأخرت أو حدث لها حادث فى الطريق .. ولما عدت إليهم وجدت حبيبى مغمى عليه .

ـــ رأيت الأستاذ أحمد رشاد وحوله رجال يعملون فى دائرة المعارف .. كانوا يعرفون الحرية .. فليعرفوها كما يشاءون .. ليفعلوا ما يفعله العلماء فى تعريف الشبع والجوع حين يتكلمون عن عصارة المعدة .. الشبعان لا يعرف من أسباب شبعه إلا أنه أكل .. والحر لا يعرف من أسباب حريته إلا أنه لا يخاف .. وإذا كان السبيل إلى الحرية أن تتكلموا بلغة التلغراف فهذا عيب الطرفين .. السالب والمسلوب .. آه يا عزيزتى .. إذا ما كان الباب مفتوحا فلا أحد ينظر من ثقبه ، وإذا ما كان الصوت عاليا فلا أحد يتسمع ..

تأوهت أسرار .. ذكرت ماضيا أليما .. ماضيا .. لم ينتج غير الهيام على الوجه . وسقوط كثير من المقدسات التى ترمز فى بساطتها إلى معانى عليا كما

ترمز المسبحة إلى الله .. ثم مسحت دمعة وهى تضحك دأبها دائما وقالت :

ــ كان يقول لى : لا تيأسى .. لا تتضررى مما نحن منغمسون فيه . حتى ولو كنا لا نؤمن بشىء . حتى ولو سبحنا فى مستنقع .. فعجلة العربة تحمل الأوحال على إطارها فى سبيل وصولها إلى نهاية الطريق . لكنها لا تبالى .. فهى تنفضها عنها كلما قطعت شوطا .

وكان يشعر أن رباط الرذائل أقوى رباط .. لأن الرذائل تعريفها بسيط . أما الفضائل فعمقها إلى أعلى ..

وهو بعد هذا قد منحنى فضلا لا أنساه له . فقد سجل زواجى وطلاقى فى ليلة واحدة . وبين الورقتين يومين فى التاريخ . ومد يده بالأولى قائلا فى عدم مبالاة .. خذى صك العبودية . ومد يده بالثانية قائلا : وهذا صك الحرية ..

ــ أنتم مثل العالم الذى عشت فيه عدة ليال فى قاع سفينة .. ظلام وضيق تنفس . أضخم أنواع الأشجار هو ما كان تحت أسطع شمس .. آه يا أسرار .. إننى أحلم . ففى قرية أبى أرض خصبة .. فلاحون يمصون أعواد الذرة مستلذين عصيرها كقصب السكر . أريد أن أحدث هؤلاء عن حريتهم فماذا أقول لهم . إننى أراهم مثل الأطفال . يجب أن نخلع عنهم ملابسهم فى الوقت الذى نلبسهم فيه غيرها . فى عملية مزدوجة دقيقة وإلا .. مرضوا ..

نظرت إليه الفتاة بعينين أجهدهما السهر وقالت له :

ــ حظك سعيد (وقهقهت) .. تقابل ألوانا مختلفة من بقايا التجارب من مثلى ومثل البدوى السيد .. ماذا كان يحدث على رأيه .. لو عدلوا اسمه وجعلوه السيد البدوى .. (وشردت بعينيها .. فقد تذكرت ماضيها وهى طفلة) .. آه .. ولا تنس يا صلاح أن الدنيا لا تعجبك أنت الآخر ولكن لك تفكيرا غير تفكيرى .. أحس أننى شبعت تفكيرا وأريد أن أسكت .. ولماذا لم يخلق الله

(للزمن بقية)

للذهن مثل جفون العيون .. كان ممكنا إذن أن نغمض أذهاننا (هــىء هىء ..) لكن إيقاف التفكير يحتاج إلى أن ندمن أشياء كريهة منها ما يتناول بالفم ومنها ما يتناول بغيره .. فظيع .. ثم لحظة صحوة واحدة توازن دهرا مما يفعله الإدمان من هدوء .. جربتها وعرفتها أنها مليئة بالعذاب ، وأرجو أن أعيش حتى أرى ما ستفعله بوضوحك وما سيفعله البدوى بعصاه التى يتأبطها ويقطع بها شوارع القاهرة مثل قائد فرقة موسيقية مات كل أفرادها .. وبقى هو .. هو .. والعصا .. وداعا .. متى أراك ؟

هز صلاح رأسه قائلا :

ـــ العلم عند الله .. وعندك ..

وخرجت تجرى ..

القسم الثانى

١١

كوبرى طلخا وأيام الصبا الأول .. وذكرياته ..

كلها الليلة تهب على صلاح النجومى وهو يعبر عائداً إلى قريته .. رجل فى عنفوان القوة .. النهر يجرى من تحته كما حدث منذ أكثر من عشر سنوات .. ليلة ألقى بالصحيفة المسائية إلى التيار .. ليلة اكتشف أنه رسب فى الثانوية .

الكوبرى قائم بأقواس الصلب .. وقمر وضوضاء .. وفى أنفاس الليل بعض روائح مما فات . والقمر والصمت . يراه الآن على مياه بحيرة المنزلة . ووقوقة طيور غريبة فى الحلفاء والغاب ، والطبيعة على البرارى شديدة الجمود .. جمالها فى تبرج غجرى وقسوتها وحشية . وصلاح يحس وهو يقطع الطريق إلى القرية أنه مثل رجل مكلف برد الذاكرة إلى عزيز فقدها ..

خيل إليه أن هذه (المناظر) لم تعد تعرفه . اللغة الصامتة التى نخاطب بها الأشياء حتى لا ننكرها لم تكن متكاملة لديهما الليلة . اختص بها شارع الخليج ذو الظلام والمتعرجات وصبار البدوى ورخامه ومعالم ميدان باب الخلق .

ولم تلبث القرية أن لاحت له .. وتنهد ..

« ماذا يريد أن يقول القلب » ..

هذه هى الربوة والنصب التذكارى لمظالم قديمة . نخلة أحرقت صغيرة . وبقى هيكلها كزنجى مقهور . ومقابر على الضفة الثانية فيها يرقد أبوه بكل أساطير الغموض ، ويرقد محمد الجندى بكل خيالات الطموح والحب

والطفولة والحرية العزلاء التى حمت نفسها بصدقها .

وبدا القنديل على باب الدوار يتمرجح .. كأنه لم يكف منذ تركه كبندول ساعة يحسب للقرية مرور الزمن فى خمول . تذكر معه صلاح بندولا آخر رآه كثيرا فى دائرة دار المعارف تحته رأس سقراط .. ونظر صلاح إلى الليل والريف وأسوار الحظائر الممتدة فوقها كلاب تلهث فى صمت ، ثم نظر إلى الدور الطينية وإلى المقابر على الضفة الأخرى وأحس كأنه يحمل كل هذا فوق ظهره ثم همس لنفسه : « يا الله .. ماذا سيحرك كل هذا ؟!. » .

وعادت العربة التى كان يركبها تقلق سكون الليل .. رجعت .. ودخل هو إلى الدار .. كانت رائحة البن المحمص حديثا تملأ جو المكان . وهناك رائحة نعناع كذلك لكنها أقل درجة .. وليس فى المكان رائحة خصومات . أصوات تدرج فى رتابة تدل على السمر ، وابتسم صلاح فهو يعلم أن شقيقه جعل أهل قريته يفضلون الصمت على الشكوى ثم تعودوا ذلك بمرور الزمن فأصبحت نظراتهم مكبلة . وهو يحلم بأن يطلق سراحها .

وترددت تحية طه مع ابتسامة لا تخلو من الجاذبية : « أهلا .. صلاح » . واحتضنه وقبله فشم صلاح من ملابس أخيه رائحة عطر فاقع .

وجلس ولا يزال وجه أخيه باشا له . وآره صلاح بادى السمنة بادى الرخاء .. وجهه يدل على أن عنده سندات ملكية لا حصر لها ..

وكان فى المجلس الشيخ المأذون وشاب جاوز الثلاثين نحيف الجسم ضئيل القامة يقول عنه الفلاحون أنه لا يعرف الله .. أما طه النجومى فكان يعتبره من الصالحين ما دام أنه لم يرق دم إنسان .

كان الحديث عاما والشيخ يتكلم عن الحرام والحلال بمناسبة حادث

طريف وقع فى القرية من أسبوع مضى ، وهو أن غريبا دخلها وظل يدور فى الحارات والطرقات وينادى « أبيض النحاس وابيض النحاس » .. وجمع عددا من الأوانى وأخذها واختفى ..

وهرع الفلاحون إلى دوار طه النجومى يشكون فى خجل وكان بعضهم يضحك . وقهقه العمدة من غفلتهم فكيف يخدعون ؟!..

ولم يعلق صلاح على ما يدور حتى بدا غريبا . ثم فاحت رائحة القهوة فحملق الشاب إلى من يقدمها حين تذكر رجلا كان يحبه .. ولم يطل الجلوس بهم فقد انصرف الشقيقان إلى البيت ..

* * *

بدا الشقيقان فى اليوم التالى وكأن رابطة ما لا تجمعهما ، كأن الليل قد قطع ما بينهما من أواصر حتى تطرف صلاح فى خيالاته وأكد لنفسه أنه هو وأخوه لا يزيدان عن فرخى دجاجة احتضنتهما الأم بعد الفقس حتى عرف كل منهما كيف ينبش الأرض .. وانتهى الأمر .. وتنهد صلاح . فقد كانا يتناقشان وقال فى نفسه : « هذا فظيع » على حين كان صوت أخيه يقول بنبرة عالية :

ــ أنا لا أعرف ماذا تريد ؟ أنت ضيعت شبابك وأخاف أن تضيع مالك .. وما للفلاحين الذين تكتب عنهم ؟ هل يحس الحصان بزهو إذا رسمت صورته على جنيه من ذهب ؟!.. كأنك لست ابن فلاح .. لقد جربتهم أنا بطريقة أحسن من طريقتك .. واسأل الشيخ المأذون .. أنت لا تعرف عنهم شيئا ..

ــ ماذا جربت ؟!

ــ هل تذكر عبد المعطى التركى ؟

ــ نعم .. فلاح وليس تركيا . وأمهر شاب فى عمله ..

ــ عال .. هو نفسه .. واسأل الشيخ المأذون .. إنه لا يأكل اللحم إلا فى المآتم والأفراح وبعض المواسم والأعياد . وهو قوى يحب عمله ، ولأجل خاطر كتاباتك عملنا تجربة .. أعطيناه ما يجعله يأكل اللحم مرتين فى الأسبوع ويشترى الفاكهة والسكر ويدخن كيف يشاء .. (وضحك طه) هل تدرى ماذا حدث ؟ كل صباح كنا نراه يستحم فى الترعة .. وأنت تعرف لماذا .. ويتأخر فى النوم .. وأنت تعرف لماذا .. وبدأت زوجته تتلوى وهى تمشى ... وارتفع صوت أولاده ، وبدا شبه (محلول) .. ها ها ها ..

رد صلاح فى دهشة :

ــ لأنه مثلا .. صار فى حكم أى ثور .. من حقه أن يملأ بطنه ليجر المحراث .. ويفرز عرقه ويشتهى بقرة ؟!

ــ ماذا تقول يا أخى ؟!

فغر طه فمه ، كان مدهوشا . كان وجه أخيه كوجه خصم لدود .. لم يعهد ذلك من أحد .. لم ير عينا تحملق فيه ، وخشى طه أن يثور فعاد يهمس فى نصف وعى وكأنه يحلم :

ــ على كل حال .. اسأل .. الشيخ .. المأذ ..

قاطعه صلاح صارخا :

ــ وأنا مالى .. إنه شاهد زور أو منكر للشهادة .. أنا ..

فقاطعه فورا بإشارة من يده .. أدرك فورا أن النقاش عبث وأن خير وقاية لكرامته أن يرى سر حضور أخيه .. وكان واثقا أنه لن يلتقى معه فى فكرة .. وعليه أن يغشه (من وجهة نظره) فصمت طويلا حتى أدرك صلاح أنه ربما جاوز مع أخيه الكبير حد التقاليد فهمس :

— آسف ..

رد طه بلا مبالاة :

— لماذا ؟!.. « لكم دينكم ولى دين » .. آه .. (وفرك كفيه) مات الرجل الذى كنا لا نستطيع رفع رموشنا أمامه .. والدنا .. رحمه الله .. وأنا .. آه .. أريد أن أسمع كل ما تطلب ..

ولم يطل الصمت بالشاب .. استرد أنفاسه كمقاتل ماهر .. لكنه لم يستطع أن يرى ما وراء ملامح أخيه .. غير أنه لم يكن يبالى بكل هذا فقد قال له :

— أنا أعيش فى القاهرة عيشة بسيطة .. ولى دخل من قلمى ..

— مبروك ..

وتغافل الشاب عن لهجة السخرية الغامضة وكأنه لم يسمع شيئا وظل يتكلم :

— حزب الفلاح الذى كنت أعمل فى مجلته ظهر أنه حزب مغشوش (وتلاعب على فم طه ابتسامة لم يرها أخوه) وصاحب المجلة كان غشاشا .. ورحت أنا وصديق لى ضحية الغش ..

— هذا يحدث كثيرا .. لا بأس ..

— ليس مهما . المهم أن صاحب المجلة الجديدة أصيب بمرضين أحدهما الشيخوخة والثانى الغنى الفاحش .. (فحملق فيه أخوه لكنه لم يكن منتبها له) وكلا المرضين كانا سببا فى استدعائى أنا وصديقى .. وهو صحفى أديب .. أب لى .. وأخ لى .. وقد عرض على أن أشترى رخصة المجلة ودارها .. ووافقت ..

لم يرد أخوه الكبير .. ظل فترة يعض لسانه أو يلعق شفته أو يقضم

أظافره . وكان ضيق الصدر لكنه أحس أنه أمام حماسة فى خيالها أنها قادرة على تجفيف بحيرة المنزلة بيد واحدة . أما صلاح فكان يتذكر ما قاله البدوى وهو مسافر : « ستشعر بالغربة .. لا قرابة إلا قرابة الأفكار .. حتى ولو كنت أنت صلاح النجومى وكان الثانى محمد الجندى .. مع السلامة » ..

* * *

وفى المساء كانت الأعصاب أكثر هدوءا .. وكان طه النجومى قد أقنع نفسه بما يجب أن يفعل ..

كان صلاح طول النهار يجول فى أنحاء مزارع أخيه فارتاع لما رأى ..

كانت هناك قوى بشرية تعمل كجن سليمان .. فقد اهتدى ذلك الفلاح القادر إلى مشروع جديد هو حفر خنادق عميقة حول أرضه فى المناطق التى لا تزرع ومن طين هذه الخنادق بعد خلطه بالرمل أصبح يملك مصنعا للطوب المحروق . وعن طريق هذه الخنادق كانت مياه الصرف تجد مسربا .. فأخذت الأرض الزراعية فى استرداد صحتها .

وكان النهار حارا نوعا . ومشى صلاح دون مظلة فالتهب وجهه ، وعندما واجه هؤلاء الذين يعملون بسيقان معروقة وأيد فى جفاف الخشب أراد أن يكلمهم .. لكنهم نظروا إليه كشخص غريب .. لم يعرفه إلا الكبار ، أما الأصغر سنا فقد عرفوه من سحنته .

وكانوا يغنون .. ومدخنة إلى ناحية الشرق لمصنع حرق الطوب وأخرى إلى الغرب لمخبز بناه النجومى لهم .. ورائحة القمائن المشهورة تختلط برائحة الخبيز كلما هب النسيم .. ومعه غناء .. أشبه بابتهال المرضى .

وقف صلاح لا يتكلم .. وحز فى نفسه أن الذين يعملون استحثوا أنفسهم وبالغوا فى العمل كأنهم توهموا أن صلاح جاء ليلقى عليهم نظرة بدل أخيه المشغول .

كان ذلك كله وقت الصباح وقبل أن يلتقى الأخوان فى المساء ثانيا ..

وكان صلاح يفكر فى كلمة يقولها لهؤلاء الناس وعندئذ اقترب من رجل مسن نوعا ما وكان يحفر ، ثم خرج إلى سطح الأرض لقضاء حاجة .. وقابله صلاح وسلم عليه .. ناداه الرجل باسمه .. فقال صلاح :

ـــ هل لا زلتم تذكروننى ؟..

ابتسم الرجل فى طيبة ومسكنة .. واكتسح عرقه من فوق جبينه بسبابته ثم نثره فى الفضاء وقال ووجهه مكرمش من الابتسام :

ـــ طبعا .. لكن .. كيف نسيتنى .. أنا جار المرحوم ..

هتف صلاح :

ـــ جار محمد الجندى ..

هز الرجل رأسه باعتزاز كأنما اكتشف صلة قربى تربطه بهذا الشاب .. ووقف الاثنان صامتين كل منهما يستزيد مما تفيض به ملامح الآخر من مودة تتزايد بتطاول الوقفة . حتى قال صلاح :

ـــ يرحمه الله ..

ـــ ويرحمنا ..

ـــ صحيح .. الرحمة للميت والحى ..

ـــ والحى أولى ..

تلعثم الشاب وهم الرجل أن يمشى فاستوقفه ، وتلفت الرجل ووقف فقال صلاح :

ـــ ما رأيك يا عم .. لو أخذتك معى إلى القاهرة ؟.

نظر الرجل بإدراك من لا يخدع وقال ووجهه مكرمش تماما بالابتسام :

ـــ إن شاء الله .. بعد أن يتم نقل هذه الأرض إلى القاهرة سأحضر وراءها ..

— لست فاهما ..

— بعد أن تتحول إلى طوب محروق وتصبح المبانى الجديدة هناك أصلها من أرضنا .. ربما يمكن عند ذلك ..

وقهقه .. ونظر صلاح فإذا به يحمل فى عبه رغيفا طازجا . أخرجه الرجل بلا وعى وقطم منه قطعة . ثم بدا عليه أنه تذكر شيئا فأعاده إلى حيث كان وعندئذ قال صلاح :

— لماذا لا تأكله؟..

رد فى غموض :

— بلا غموس ؟.. ها ها !.. متأسف إنه هو الغموس يا سى صلاح .. أين أرضك يا جندى .. ها ها !! هاى .. ليس هذا خبزنا بل هو غموسنا .. هل تحب أن أغنى لك .. ذكرتنى بما كان يفعله معك ذلك الرجل المرحوم .. كان يعجبنا كلامه .. يا ما غنى لكم ونسيتم .. أحسن رجل كان يعرف كيف يكلم الناس .. هل كتبت على قبره الآية التى أوصى بها ؟!..

وفجأة تحول الرجل إلى مسخ غريب .. طفل رجل .. حزين نشوان .. حر عبد .. وأخرج الرغيف ثانيا وقطم منه قطعة .. وانطلق بلا استئذان إلى الخندق حيث يعاود الحفر .. وكان فى الطريق يغنى وفمه محشو بالخبز اللين وبصوت أجش مهزوز : « مسكين وحالى عدم من كتر (غلقانك) .. ياللى تركت الوطن والأهل علشانك » ..

وظل صلاح واقفا تحت الشمس .. نسى نفسه .. كان ينظر فى الأفق كأنه يفتش عن المكان الذى يقطع منه الحبل الذى شد أخوه فيه هؤلاء الناس .. ورأى على مقربة منه شجيرة لعلها خروع .. فتذكر البدوى وحديثه .. وكان على أغصانها الخضراء ورقة بيضاء .. مبقعة بالزيت ، لعل أحد الناس أخذ منها

شيئا ورمى بها .. وبدأ الورق الأبيض والأخضر فى نظرة واحدة أمام عينيه . « فتذكر طه » : « أى نوع منهما أكثر قدرة على تحويل مستقبل البشر ؟ » فطه أخوه لا يؤمن إلا بالورق الأخضر لكن ليس ذا الخضرة الحية تلك التى وهبها الله ..

كان ذلك كله فى ضحا اليوم ..

لكن الأخوين فى المساء كانا أهدأ من قبل .. جلس صلاح يتكلم :

ـ أعجبتنى مشروعاتك ..

هز طه رأسه فى غرور وترقب . واستطرد صلاح :

ـ لكن .. (وسكت) .

ـ تكلم .. ألا يسرك أن تكون مثلى ؟..

ـ وهل يسرك أن تكون مثلى ؟!

هز طه رأسه بالنفى يعنى لا ..

هز صلاح رأسه بالنفى يعنى لا ..

ثم انفجر الأخوان ضاحكين .. وساد هدوء وعاد صلاح بعده يقول :

ـ قد يعجبنى كلام الشيخ المأذون عن الحلال والحرام .. وقد يعجبنى ضحكك عن الفلاحين الذين خدعهم مبيض النحاس ومضى .. وقد يعجبنى مكسبك .. لكن ذلك فى نظرى لا يزيد عن إعجابى بكتاب « الأمير » .

كان صلاح يقصد كتاب ميكافللى وهو يعلم طبعا أن أخاه لا يعرف ذلك . لكن هذا أفلت منه . وما لبث طه أن هز رأسه سائلا :

ـ من من الأمراء تقصد ؟

قال صلاح بسرعة بديهة :

ـ الأمير عباس حليم ..

بدا على أخيه حبور مستتر فسأل برقة :

ــ والسبب ؟

ــ أمير يقول عن نفسه أنه صديق الفقراء ويرعى حزب العمال .. كما يحتضن النعام بيض العصافير .. تصور .. (صمت) .

وعاد صلاح يفرك كفيه وينظر فى أظافره ، واستطرد ذاهلا كأنه يحدث البدوى صديقه لا طه شقيقه :

ــ كان شارع الخليج ترعة فيما مضى .. كانت الأسماك فيها يأكل بعضها بعضا .. والآن .. أصبح فيه ناس .. يأكل بعضهم بعضا كذلك ..

وسعل طه من الدخان فانتبه صلاح .. سأل طه :

ــ ما هذا ؟!

ــ ذهول ..

ــ أنت فى حاجة إلى طبيب .. أنت تتكلم عن أوهام فى بالك لا بد أن تذهب بك .. لا تزال أنت الصبى المندفع الذى كان يلعب بجوار الجندى وهو يغسل عربات العمدة . (صمت طويل) ماذا تريد أن أعمل لهم . أنت تقول وتكتب ولكنك هربت من معاملتهم فى بحر سنتين .. (وبصوت عال) عندى سؤال واحد سأسأله لك وجاوب عليه : « هل تطلب المساواة بيننا وبينهم فى الحياة أو فى الموت ؟ » ..

فغر صلاح فمه وهمس :

ــ لست فاهما .

فأعاد أخوه عليه السؤال فأجاب الشاب فى تحرج :

ــ طبعا فى الحياة .. الموت .. وما بعده ملك لله ..

فهز طه رأسه كالمنتصر وقال :

— عظيـ يـ يم .. وصلنا . أنا سأعرض عليك مساواة أقل وأرخص تكلفة ولا مشقة فيها .. سنتساوى معهم فى الموت . وغدا .. وأنت هنا .. سأعلن فى القرية أن صلاح أخى أجبرنى على نقل جثمان محمد الجندى من قبره ليدفن إلى جوار النجومى الكبير فى قبره طلبا للمساواة . وعندئذ سنرى ماذا يقول الناس ؟!

لم يفق صلاح بسرعة .. كانت أخذة مفاجئة . لكنه ما لبث أن تمتم :

— ماذا تقول يا أخى ؟!

— الله .. قلبت دماغنا .. لنبدأ بالمساواة فى الموت أولا وبعد ذلك نفكر فى المساواة فى الحياة .. السهل أولا ثم الصعب ثانيا .

— هل تتكلم جادا ؟!

— بشرف النجومى الكبير سأعلن ذلك صباحا فى القرية إذا وافقت . وماذا تظن أن يحدث ؟

هز صلاح رأسه فى حيرة :

— لا أدرى ..

— أنا أقول لك : سيتجمهر فريق كبير من الفلاحين عند قبر العمدة ليمنعوا وقوع مثل هذا الحادث .

ضحك صلاح فى أسى :

— تقصد .. ليحولوا بين محمد الجندى وبين الدخول ؟!

— أى نعم ..

وبعد صمت طويل قال صلاح :

— صدقت ..

فرد أخوه بنفاد صبر :

— انتهينا .. « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » . صدق الله العظيم يا سيدى .. ومن أجل خاطرك سأضيفها للآيات المكتوبة على قبر النجومى الكبير ليدخله محمد الجندى دخول محمد الفاتح ..

أطرق صلاح .. أخذ يفكر فى الحرية .. أصحابها المحتاجون إليها أحيانا يكونون أعداءها .. إن ما يقوله طه حق كله .. سيحدث كل هذا .. وسيتحول صلاح إلى أضحوكة .. وعاوده منظر شجرة الخروع فى الحقول الجرداء ودخان القمائن والمخبز . والورق الأخضر والأبيض ، وخوف الناس من بعض الحلى الإنسانية التى تعتبر ضرورة لحياتهم كما تهاب الريفية الثوب العصرى . وعندئذ قال صلاح :

— أخى . تعال نتفق .. لا داعى للفضائح .. فأنا شخصيا لا أرى مانعا من أن يدفن الجندى إلى جوار النجومى الكبير .. لكننى أمانع فى نبش القبور . من أى نوع . حاول ألا تغضب .. وفى سره : « أين أنت يا أسرار ؟! فإنى أبلع ريقى الآن وأبصق إلى الداخل » .. حاول ألا تغضب يا أخى .. « لكم دينكم ولى دين » . وأبى قد ترك لنا أشياء تقسم وأشياء لا تقسم .. الأرض .. وتقسم .. والخصال لا تقبل القسمة ولا التحويل . وأنا فى نظرك شخص مؤذ لا يمكن إصلاحه فحاول إبعادى عن الأعمال .. خذ نصيبى من الأرض وأعطنى الثمن ، ولن أضايقك بعد اليوم بشىء ..

عندئذ دخلت أمه تصخب وهى عجوز مريضة وقالت لطه بلهجة مثل لهجة طه :

— اسمع كلامه : أعطه ما يريد فالنصيحة بالنسبة إليه مثل النفخ فى الشبكة .. هل نسى ماذا عمل ليلة مات النجومى الكبير ؟!..

وصرخت وانصرفت . وساد سكوت . و لم يدر صلاح لماذا آثر فى نفسه هذا أكثر من أى منطق .. أحس بخوف لم يجد له تعليلا .. وتذكر ملابس التمثيل التى كان يلبسها ليلة مات أبوه والظلام والهرج والمرج الذى صنعه طه بيديه . وعندئذ برقت الدموع فى عينى الشاب .. ودخلت صبية بالقهوة ففاحت رائحة البن .. عادت أحزانه أكثر كثافة .. ماذا جر عليه حب الناس ؟!. وأطرق كأنه يحمل فوق رأسه حجرى رحا . لكنه تماسك . وأفاق على همس أخيه :

ــ صلاح .. لا تحزن .. لك ما تريد .. سأشترى أرضك .. ولى من الأولاد عدد يملأ البرارى ..

١٢

ودخل القاهرة والليل متأخر .. لم ير صلاح أنوارها تتألق هكذا من قبل . كان يحس بفيض من السعادة يعادل أضعاف التعاسة التى عاشها فى الريف .

« بعت الأرض واشتريت الناس بعكس طه أخى .. رأيت بعضهم ينظر إلى نظرة رثاء لأننى بعت ميراث النجومى . أما أنا فأشعر بأننى لم أبع إلا ألف نير وليس فى هذا ما يحزن » .

ونام هذه الليلة يحلم بأشياء كثيرة .. وانتابته مخاوف .. فسأل نفسه : ماذا عسى أن يكون ؟.. إنه فى أسوأ حالاته سيكون مثل البدوى السيد .. ولو حدث هذا فماذا يجرى ؟! إنه لن يكون تعيسا حتى ولو فشل فى فتح النوافذ المعنوية لتلك الدور الطينية فى القرى . فالمحاولة فى ذاتها لذة . وهو .. قد سمع وصف الجوع كما سمع وصف من يحتضرون ومع ذلك لا يستشعر خوفا .

وقبل أن تشرق الشمس كان يرتدى ثيابه وطار طيرانا إلى منزل البدوى فى السيدة زينب . وطرق الباب طرقاته المعهودة فخف الرجل يفتح .. وتعانقا .. ثم ابتعد كل عن صاحبه وعادا فتعانقا . وفى صمت وتودد وهمس بالتحية تأكد كل منهما أن لو ألقى مع صاحبه فى (بئر يوسف) ما خاف . كل منهما بالنسبة للآخر مثل حبة العين . النافذة التى نحملها ونرى بها الدنيا . عزيزة ولو رأينا من خلالها المآسى .

كان أمام البدوى ساعة دخل صديقه كوب من اللبن وكسرة من الخبز

(للزمن بقية)

البائت وجنبهما سيجارة أطفئت بعد احتراق نصفها لتشعل فيما بعد . وكتاب سميك . ودواء صنع محليا يعني فى المنزل .. من كتاب طب قديم ..

وجلس الصديقان . قال البدوى بهدوئه المعهود بعد أن نفخ أنفه :

ـــ تناول فطورك ..

تبسم صلاح وهز رأسه مستفهما « أين هو ؟! » فقال صديقه :

ـــ إن شئت اشرب اللبن كله وإن شئت قسمناه . (وبعدم مبالاة تماما وبضحكة) ما بقى منك يكفيني .. وما لا يبقى منك يكفينى أيضا ..

تنهد صلاح . ذاق طعم القلب الإنسانى حين ينثر شهده على أمر الأشياء فيحليها .. ونهض فأتى بكوب فارغ وقسم اللبن . وجرعه مرة واحدة ثم خرج مسرعا فاشترى أشياء أخرى تؤكل وجلسا يتحدثان . قال صلاح : وجدتها كما تركتها .. وجزعت من خوف بعض الناس من ثوب الحرية . كم وددت أن تكون معى يا أخى لترى الصعوبة التى على الأشياء .. شر الناس فى القرية لا يقول الحق وخير الناس فى القرية لا يقول الحق . لماذا ؟!.. أخبرنى .

ـــ لأن الحق سيخدم أكبر عدد ممكن من الناس .. وشر الناس لا يستفيد من هذا .. وخير الناس يخاف من شر الناس ..

وبعد صمت قال صلاح فى دعابة :

ـــ منذ اليوم أصبحت موظفا عندى .. فإنا سنقابل الأستاذ التهامى ونشترى المجلة الجديدة .

لم يحدث ما كان صلاح بانتظاره . لم يحدث أن نهض البدوى وثبا ليقبله ويهنئه و لم تبدر منه بادرة غير عادية . لكنه نظر إليه نظرة باسمة . و لم تحجب النظارة نداوة عينيه اللتين كانتا شبه مغرورقتين بدموع .. وكان فى يده مطواة يقفلها ويفتحها سلاحها لامع .. وأخيرا قال له :

— آه يا ابن النجومى .. بدأت مرحلة المصاعب الحقيقية فى حياتنا . كنا نرتع مثل الأبناء وآن لنا أن نكدح مثل الآباء . وسيكون أبناؤنا آلافا يتحلى معظمهم بالعقوق . يا ابن النجومى خفف من فرحك .. هل تعلم لماذا خص الله الأنبياء بالرسالات الكبرى ؟..

هز صلاح رأسه واستطرد البدوى :

— ليس لأن الرسالات كبرى فقط ولكن لأنها تحتاج إلى أنبياء .. هل تفهمنى .. الأذى والذم ومناوشات الندم أهم علامات للرسالة العظيمة . فمن تكون يا ابن النجومى ؟!.. لعلك لا تزال تحلم بالشعر المكسور والشعر الأصفر وفتيات السابعة عشرة على كوبرى طلخا .. ها ها . قبل كل شىء وطن نفسك على الجروح ثم . من سيكتب معك ؟.. الشبان المتحمسون أو الشيوخ الناضجون أو هما معا . وقد قلت إنك ستكون مستقلا عن كل حزب وعليك إذن أن تتحمل الخسائر .. فالورق الأبيض لا يكون له وجود إلا إذا حمله الورق الأخضر ..

ضحك صلاح قائلا :

— رأيت ذلك على شجرة الخروع فى الحقول الجرداء .

لكن صديقه لم يكن يسمعه ، كان مستغرقا تماما فظل يقول كمن يدلى بوصية أخيرة :

— وأنا أعلم أنك لست طامعا فى الربح ولكن لا بد أنك طامع فى الاستمرار .. وهنا المشكلة .. وعدد المتحمسين فى القرى قليل .. والعاصمة كما ترى .. حسناء ذكية لكنها مخمورة .. وأبناؤها ينتظرون المعجزة .. معجزة أن تتحد الأحزاب وتسعى بإمكانياتها الفكرية والمالية إلى رفع الحصار عن الريف ذلك الذى لا يفرق كثيرا بين الذرة والذرّة .. والذى دفنت فى ثراه كنوز المستقبل ..

قال صلاح فى خمول :

ـــ أفسدت فرحتى فى يوم عيد ..

ـــ ما دمت قد رفضت مقدما أن يتبنى صحيفتك أمير أو نبيل أو حزب فعليك أن تقدر وزن المخاطر .

ـــ أنت على حق .. ومع ذلك ..

ـــ ومع ذلك سنقول كلمتنا . والمصاريف علينا هى هى هى .. ولن تفقد نفسك إذا عرفت مقدما أين ستقف .

فقال صلاح :

ـــ هل سنفقد أكثر مما فقدته السيدة أسرار ؟! أظن لا يا صديقى ، هل ستكون نهايتنا النفى فى جزيرة معزولة والعمى والحنين مثل عرابى والبارودى ؟!.. أظن لا يا صديقى .. وعندما نفقد كل شىء ويبقى الضمير فسينبت الريش من جديد ..

ومد صلاح ذراعه ورفع صديقه من تحت إبطه كأنما يستعجل فيه قواه التى يأمل منها كثيرا . وما لبثا أن كانا فى الخارج عصا الأول تحت إبطه وخطا صلاح تسبق خطا البدوى .. فى الطريق لإتمام الصفقة .

* * *

وظهرت « المجلة الجديدة » مرة أخرى بعد بضعة أشهر وإنفاق آلاف . جلس صلاح النجومى على مكتب الأستاذ التهامى وجلس صديقه فى حجرة مجاورة لا تخلو من الأناقة . وكانت الصحف قد نشرت عنها عدة إعلانات فهم منها أنها ستحرس مصالح الفلاحين بعيدا عن حزب الفلاح ..

وكان العدد الأول قد حشدت له جهود . خبرة وحماسة ونفقات . وظل صلاح طوال النهار والأيام التالية يرد على محادثات الإعجاب من نساء ورجال

مجهولين أو معروفين . وكان صلاح قد كتب فى العدد الأول بعنوان « ضمير الأرض » .. وتكلم بخبرته كفلاح عن أن الزراعة منذ قديم تحتاج إلى نوع قاس من السلوك ، فما بالنا لو زرع (الواحد منا آلاف الأفدنة) ..

وكتب الشعراء فى الفلاح والتعاونيون عن الفلاح ، والاجتماعيون كذلك . وأخيرا .. حلى غلاف المجلة بصورة من القرية . امرأة تحلب بقرة مهزولة وحولها ستة أطفال كل طفل منهم يمد يده بكوز فارغ إلى أمه التى لا تزال تحلب والبقرة لاوية عنقها نحوهم تنظر إليهم شزرا .. والكل مظلومون .

ودخل موظف حديث السن على صلاح النجومى يحمل مجموعة ضخمة من الرسائل لا تقل عن مائتين كلها من ريف المنصورة تهنىء وتطلب المزيد . كل هذا من أول عدد . ثم مضت الأيام وقال (التوزيع) إن العدد قد نفد تقريبا .

واستطارت الفرحة قلب صلاح . وابتسم له البدوى فى هدوء وقال بوجه محمر نوعا : « نحن لا نزال .. » .. قاطعه صلاح وبصوت لا يخلو من الحدة :

ــ لقد أصبح همك الآن أن تبث الخوف فى قلبى .. لا تفسد علينا الفرحة أيها الرجل .

وخرج البدوى فى هدوء حيث جلس مشغولا تماما كأنه يبنى الدنيا بيديه .. ولم يدر صلاح لم وثبت (أسرار) إلى ذهنه .. غابت عنه فى المشاغل .. منذ شهور لم يرها ولم يسمع عنها وحتى بعد صدور المجلة وتحقيق هذا النجاح لم يسمع لها صوتا .. ثم خيل إليه أنه يسمع وقع حذائها . وكان أحد الموظفين فى الخارج يناقشها فى أمر الاستئذان عليه .. غير أنه ما لبث أن رآها تفتح الباب بصخب ودخلت .. ضحكتها المطلقة وفمها المفتوح وجذعها المائل المهتز ..

وبشاشتها التى لا تبالى كأنها مستعدة لأن تحضن من تصافحه .

وتعانقا كصديقين . وجلست أسرار مستغرقة فى ضحك ينقطع ويعود كأنها لا تصدق ما ترى . ثم أشارت إليه بأصبعها تقول :

ــ أنت ؟!.. صلاح النجومى ؟!.. هنا .. على نفس الكرسى الذى كان يجلس عليها التهامى ؟!.. مجنون من يستغرب فعل الزمن ..

ــ هل هذه تهنئة ؟!..

ــ ربما .. لكن .. آه ..

وصمتت قليلا . وضعت كفها على جبينها ثم أسفرت عن وجهها وقالت له :

ــ اطلب لى قهوة وهات سيجارة .. وسأتكلم .. آه .. شكرا .. لدخانك نكهة أعرف مذاقها .. (وأبرقت بعينيها) .. آه يا ابنى العزيز .. لقد رأيت صديقك البدوى مهموما .. كأنه كلف بنقل الهرم الأكبر إلى ميدان عابدين .. تخفيفا على السياح .. هىء هىء .. لكن . حقيقة عدد ممتاز .. ليس فيه إلا عيب واحد وهو أساسى فى نظرى ..

نظر صلاح إليها فى فضول واستطلاع شديدين :

ــ قولى يا أسرار .. ليس بيننا كلفة ..

ــ طبعا .. عيبه أنه ليس تابعا لأحد .. وخال من النفاق .. ليرحمك الله ..

واستغرقت فى الضحك فكاد صلاح أن يثور .. أحس لأول مرة فى حياته أن كلمات كثيرة تضايقه . ثمانين فى المائة من الكلمات لا يدخل على نفسه السرور . لم يكن هكذا قبلا . حتى الأوقات التى يقضيها مع البدوى لم تعد فى طلاقة أوقات (ما قبل المجلة) ولا صفائها .. كاد يضحك .. وكانت أسرار تنفخ الدخان فى وجهه .. شعر صلاح أن المرأة قادرة جدا على إرسال أى كلمة

جارحة أو شجاعة أو صادقة أكثر من الرجل . فسأل نفسه لماذا .. وعادت أسرار تقول :

ـ ماذا يساوى المال فى سبيل ما تفعل ؟ وماذا يساوى المال إذا قسته بما فقدته فتاة مثلى ؟ لكن لا بد أن يكون شعار مجلتك التبعية والنفاق وإلا .. توكل على الله وأفلس ..

ـ ألا ترين كل هذه الخطابات ؟.. كلها إعجاب وتأييد ..

ـ ممكن .. لكن .. الشهود شيء والمحكمة شيء آخر .. قد يكون الشهود عدولا والقضاة ظلمة .. الحق يا ابنى مثل النور .. يحتاج إلى مصاريف .

قال صلاح فى عدم ارتياح :

ـ كلكم تلومونني .. كأننى أجرمت ..

ـ بالعكس .. ياما صفق التاريخ للمجرم القوى .. ولا تنس أن بعض أتباع المسيح سلموه بعد العشاء الأخير عندما طلبته السلطة للصلب .. وعلى كل حال منظر البقرة الساخطة على غلاف المجلة أعجبنى .. اضحك يا صلاح .. خذها ببساطة فكلنا بقر ساخط ..

نفخ صلاح ثم سكت .. وهرش رأسه ثم قال :

ـ أين كنت طوال هذه المدة ؟!.. مجرمة .. فصول السنة أربعة .. وأنت الفصل الخامس من العام . يأتى بلا ميعاد وليس له طقس ثابت ..

هتفت برقة مفاجئة :

ـ أوحشتنى ..

ـ ومن كان موضع (سأمك) فى هذه المدة . بذمتك ؟!

تأوهت وهى تشعل سيجارة جديدة :

ـ آ .. سأتزوج .. (ونطقت الجيم معطشة فى لون من الدلال كطريقتها

حين تقول له يا ابنى) .

سكت صلاح طويلا ونظر إلى السقف . كان يبرق بطلاء زيتى قديم فيه بحيرة مطموسة وقارب لم تعد أدوات عومه ظاهرة من الزمن . وخيل إليه لوهلة فى عمق الدهر أنه يسبح مع أسرار فى هذه البحيرة .. وفجأة انتفض وشعر بقشعريرة . اصطكت أسنانه وتحسس جبين نفسه فإذا به محموم . ولاحظت أسرار ما حدث .. ووضعت خدها على خده لتعرف مدى الحمى وعندئذ نبهته إلى أن يقوم ليستريح .

* * *

كان الأستاذ البدوى هو القائم بمهام المجلة طول بضعة أيام ، كان صلاح خلالها فى شبه غيبوبة . كان يعلم أن هذه الحالة تعبير حاد عن القلق .. وكانت أسرار تسهر إلى جواره طوال ليالى مرضه . ومن الغريب أنه كان لا يهذى .. كان يشعر بثقل عنيف ، عذابه كان أشد من أى عذاب ، فقد ظلت أحلامه طوال هذه المدة تدور حول شيء نادر هو كما قالت أحلامه : « إن حكما صدر ضده من رجال ملثمين يرتدون ملابس الريف ويجلسون على منصة ، ومنطوق الحكم أن يصلح صلاح النجومى أرض البرارى وحده . يجفف ماءها ويقتلع نباتها البرى ثم .. يسوى الأرض ويزرعها فاكهة .. وأخذ يعمل .. ويعمل .. ويعمل .. ويعرق .. ويعرق .. ويعرق .. حتى أتلف ملاءة السرير .

وعندما أبل من مرضه نظر لأسرار بعينين شاكرتين و لم يفصح .. ودخل البدوى متأبطا عصاه .. نفخ من أنفه وقبله .. وفاحت منه رائحة عطوره المحلية .. تلك التى يصنعها فى البيت .

وجلس الثلاثة .. الرجلان والمرأة .. وحمل إليهم مطعم الشواء غداء إلى

بيت صلاح .. وجعلوا يتحدثون .

كان صلاح يحس لأول مرة فى حياته بطعم المرض فى فمه والخوف فى قلبه والتوجس من فقد الصديق .. الصديق الوحيد البدوى السيد ، الذى لم يكن يحس لوجوده وزنا قبل اليوم مثل هذا الوزن . وجعل يتكلم عن الأحوال فى غياب صلاح فقال لصلاح :

ــ قد لا تصدق أننى كدت أن أحقق ثروة عن طريقك .

قال صلاح مداعبا :

ــ لا بد أنك كنت ستبيع المجلة وأنا غائب ..

ــ المجلة ؟!.. لا .. ذلك شىء لا قيمة له إذا قيس بما روودت عنه ..

قالت أسرار ماجنة :

ــ لا بد أنهم راودوك عن نفسك يا أستاذ بدوى ..

فرد فى هدوء مثير :

ــ لم تبعدى عن الحق . روادونى عن نفسى بصورة مقلوبة .. راودونى عن صلاح النجومى ..

قالت أسرار :

ــ تقصد أن مجلة أخرى زايدت فى رفع مرتبك ؟

فتبسم و لم يضحك . وكان وجه صلاح فى احتقان شديد . فقد وقع بعض مخاوفه لكنه كان صامتا .. وكذلك صديقه وكذلك صديقته ..

ها هم أولاء الثلاثة ينظر بعضهم إلى بعض . يبحثون عن كلمة معلقة تخص الجميع مثل مفتاح باب ، كل منهم ينتظر أن يخرجه أحدهم من جيبه .

واصفر وجه البدوى ثم عاد فالتهب وقال :

ــ بل الذى حدث يا سيدتى أنهم أرادوا منى أن أبيع صلاح نفسه ..

لا تقاطعونى .. لقد عرضوا على أشياء هى غالية فى نظرهم ، ولكنها عندى .. لا داعى . فصلاح يعرف مذهبى .. نعم . أحدهم بعث إلى وأنت مريض وظل يقنعنى لأقنعك بما رفضته أنت . فقلت له : « إن كل ما تفكر فيه ، هو أن تقول كلمتك وتمضى » والكلمة التى تعلق فى الأذهان قد يرويها الزمن فتثمر فجأة ..

قالت أسرار بشبه شرود :

ــ صلاح .. ألا تخاف أن تصبح فقيرا ؟!.

قال بصوت واهن :

ــ لقد تمردت على الغنى فكيف أخاف الفقر ؟ (ونظر إلى البدوى) ما يبقى من كوب اللبن على مائدة صديقى يكفينى .. وما لا يبقى منه .. يكفينى ..

هزت الفتاة رأسها وقالت كأنها تخاطب نفسها :

ــ حقيقة .. الشمس لا تظهر مرة واحدة .. فى كبد السماء . كما .. تقذف الكرة .. لكنها .. تعلو رويدا .. رويدا ..

* * *

وفى الليلة التالية كان صلاح قد أبل من مرضه تماما .. لكنه كان وحيدا فى المسكن . وجاء إليه البدوى وألقى إليه بأنباء العدد الرابع .. و لم يكن الموقف مشجعا . وجاءت رسائل بنفس إمضاء المعجبين بأول عدد تحمل السب واللعن .. موقف مربك .. والمخازن تبدأ تمتلئ .. وقال البدوى :

ــ إنى أشعر يا صلاح بما يحدث تقليديا لمثل موقفك .. أن يفرض على مجلتك الحصار .. ورجل مثلى موقفه معك شائك جدا .. ليتنى لم أعرفك .. إنى غير خائف على مالك .. ولكننى خائف على حماسك . أخاف أن تتمزق .

وأنا إذا وافقتك على أن تسير فى الطريق الذى رفضته من قبل خنتك وخنت نفسى .. وإذا ذهبت أنت فإنى لن أتبعك . والحق كالنور محتاج إلى مصاريف على رأى أسرار .. وإذا ما انتهى بك الأمر إلى التوقف حز هذا فى نفسى كثيرا ، فإنا مثل أبى أجرى برجل واحدة وراءك .. وراء مهر عريق .. يا إلـٰهى .. مجتمع الأشرار كالعنكبوت يغزل شبكته فى وهلة .. ويحاول أن يخبىء نظراته البشعة بين خروق الشبكة (صمت طويل) هل لى أن أسأل .. كم .. بقى معك ؟!

همس صلاح فى خجل :

ـــ معى ما يصدر أربعة أعداد ..

وضع البدوى كرة عصاه المعدنية فى فمه كأنما ليكتم أنفاس نفسه ثم قال :

ـــ المشكل أن علينا أن نؤجر مخازن جديدة .. كم تبدو هذه الأعداد من المجلة مثل العوانس .. كم منهن مظلومات .. ذنبهن أن الرجال يفقدون التمييز الصحيح أحيانا . آه .. صلاح .. أين أيام الطلاقة .. ما أحلى ليلة العباسية الشرقية .. ليلتها كنا نحس أننا نحكم الأشياء .. حتى ظلال الشجر على الأرض .. نتخيل أنها خنادق أو صخور أو زفت مراق .. ما لى حولت الموضوع إلى مأساة ؟..

ضحك صلاح :

ـــ تسألنى ؟ على كل حال لا بد أن يحدث شىء ما ..

ـــ أحيانا تبدو ساذجا . هل تكف الحوادث عن الوقوع ؟ غير أننا لا نرى إلا ما يهمنا .. والباقى .. لاغ .. (صمت) سلام عليكم .. وأهلا بغدٍ ما دمت موجودا يا صلاح ..

وقبله فى جبينه . ومضى ..

* * *

وتقدمت خطا الليل ..

خريف بارد وهواء مستعجل يصفر فى النوافذ وصلاح يلقى إليه بسمعه . وكان يسأل نفسه : ماذا أعمل ؟! إنه على وشك الإفلاس .. بضعة آلاف من الجنيهات تآكلت فى سبيل عدة كلمات حول فكرة . وعاد يسأل نفسه : هل هو مغفل أو مغبون أو على حق ؟ وجاء الجواب : بعض الناس يدفعون حياتهم الغالية ثمنا لأتفه شىء .. ولشىء لا يشترى .. يدفعون وهم يعلمون ويتغافلون وهم يعلمون . مثل ذلك الشاب الأنيق الوسيم الذى جرى وراء الترام أمام دار الكتب فسقط بين العربات . كان يعلم تماما ما يفعل وإن تجاهل . وهو فى رأى صلاح قد « اشترى لحظة بحياة » .. فمن الأفضل .. إذن فلا داعى للَّوم .. « لماذا لا أفرض أننى ابن محمد الجندى .. ورثت دارا مسقوفة بالحطب وبابا مملوءا بالخروق . عيون الصبيان فى الحارة تتلصص منه باستمرار على دار ليس فيها سر » .. وشعر بطمأنينة . وكان يهتف : « يسقط الخوف » .. ومد رجليه . شعر بدفء الغطاء . وعندئذ تمنى لو أن أحدا قدم إليه شرابا دافئا .

ولم يلبث أن سمع جرس الباب .. فعرف الطارق .. ودخلت أسرار .. قبلته فى خده وهو فى الصالة ، ثم انسحب إلى فراشه وتبعته . وجلست على السرير عند قدميه . قالت :

— فى عينيك طلب .. قل يا ابنى ..

— شراب دافىء ..

فضحكت فى تهالك كأنها مجهدة :

— شراب دافىء .. وغطاء دافىء .. وليل دافىء . اطلب ..

ثم عادت إليه بقدحين من الشاى .. وجلسا يشربان .. قالت بعد أن هربت بشفتيها عن حافة الكوب الملتهب :

— خمن أين كنت الآن ؟!.

قهقه وانيا :

ــ عسير جدا أن أعرف ذلك .. فأنت تحملين معانى اسمك كلها ..

هزت كتفها :

ــ خمن ..

أسرع قائلا :

ــ عند العريس ..

ضحكت عاليا ورشفت رشفة :

ــ هايل .. هل يبدو على ذلك ؟!

هز رأسه نفيا .. وساد صمت . ورويدا رويدا هبط على المكان ظل كان يجب أن يهبط . أشبه بالملل المشوب بالخجل . وكان الليل من حولهما مرسوم على لوحة توقع الصباح بعده نوع من الوهم لكنه لا يورث الخوف ، ويدعو إلى عمل ما . حتى ولو كان أكلا .. أو قبلا .. أو نوما .. أو خصاما .. كليل العاشق والعشيقة حين يوسوس لهما بمخاوف المستقبل الملىء بالهجر أو الكره أو البوار ..

وقطعت أسرار الصمت قائلة بهدوء مخدر :

ــ هل تعرف أين يسكن الآن ؟

هز رأسه نفيا . فاستطردت :

ــ فى العباسية الشرقية ..

وانفجرت بالضحك . تهز جذعها وتطوح رأسها وغدائرها ، وهو صامت . ناظر .. يحس أن الحمى ستعاوده .. وعاد نفس الصمت الذى انقضى منذ وهلة فقطعه صلاح :

ــ ذكرتنى بليلة العباسية .. ليتنا نعيش هناك مع المجانين .. كنا ليلتها يا أسرار على الخط الفاصل بين العقل والجنون . ولذلك كنا سعداء .. حتى البدوى

السيد رمى بوقاره وراء سور أحد البيوت حين وقف ينبح لأحد الكلاب ليغيظه .. وأخذ الكلب ينبح بسعار .. وجرينا .. آه (صمت) لكن قولى لى .. هل ستتزوجين هذا الرجل حقيقة ؟!

فردت بشبه احتجاج لكنه مفتعل :

ـ هل ترانى لست أهلا لهذا الشرف ؟!

ـ لا . ليست هذه هى المشكلة .. المشكلة أنه يعرف نظرتك للحياة .. فقط .

زمت شفتيها بشدة وحملقت فيه كأنها تخيفه ثم قالت :

ـ يبدو أن الرجل لا يستسلم تماما لمقاديره مع المرأة إلا إذا خانته زوجته . هذا إذا لم يهجر النساء . أما إذا لم يهجر فيعيش إما صيادا وإما فريسة ..

رد صلاح بلهجة تهكم خفيفة :

ـ منكم نستفيد ..

(وتأوه) ..

ـ وهل تظن أننى رضيت .. لا .. إنه يتعذب بسببى .. لكن عذاب الحب خير لى من العذاب الآخر .. (صمت) .. لماذا تنظر إلى هكذا .. إنك مريض فلتنم ..

وقبلته قبلة طويلة وأحبكت عليه الأغطية وخرجت تجرى ..

١٣

كانت علامات الخوف تتزايد على وجه البدوى السيد أسبوعا بعد أسبوع . أما الشبان المتحمسون فقد بدوا كالناقهين من المرض . فلم تكن هذه المجلة فى نظرهم مصدر رزق . وإنما كانت شاهدا على شىء كانوا يحلمون بأن يروه فى مصر ذات يوم ..

أما صلاح فقد كان أقلهم اهتماما .. على الرغم من أنه دخل ذات صباح فرأى مشهدا أثار أشجانه .. كان له فيما مضى ذكريات حلوة .. لكنه اليوم جرح قلبه .

هناك عربة نقل تحمل (الرجوع) من مجلته .. وكانت عتبة الباب ذات وسادة من الحجارة فعرقلت خروج العربة .. وكان هناك شابان يساعدان الحوذى والحمار على اجتياز العتبة بالدفع من الخلف .. ولم يفطنا لمقدم صلاح .. وكان أحد الشابين يقول للآخر مداعبا فى مرارة : زق يا ابنى زق .. محرر وحمار .. زق يا ابنى زق . والعوض على الله » .

وتراجع صلاح حيث اختبأ خلف إحدى البواكى فى شارع محمد على حتى مرت المشكلة .. ووثب الحوذى على مقدم العربة ولسع الحمار بالسوط وهو يقول كلمتهم المشهورة : « حا .. يا حمار .. » .

وعاد صلاح آخذا طريقه إلى الباب وهو يسأل : « كيف يعرف الحمار أنه حمار ولا يعرف كثير من الناس ماهية نفسهم .. » .

وجلس على مكتبه ودخل الأستاذ البدوى فى يأسه الوديع ، وفتح الرسائل

فإذا كلها سب .. وأسماء .. لا فرق بين من شتم بالشعر أو النثر أو الخط الردىء أو الرسم البذىء .. والخطابات من كل مكان .. الدلتا والصعيد والعاصمة الكبيرة .

« يا إلٰهى !.. كيف فاحت رائحة جريمتى إلى هذا الحد ؟ » . وعندئذ ذكر قول البدوى : « هل تعلم لماذا خص الله الأنبياء بالرسالات الكبرى ؟! ليس لأن الرسالات كبرى فقط ، ولكن لأنها تحتاج إلى أنبياء .. هل تفهمنى ؟! الأذى والذم ومناوشات الندم .. » . وجلس شاردا . ورد على أسرار باقتضاب شديد وهى تسأل عن صحته .. وجلس مسترخيا .. مؤخر رأسه على طرف الكرسى وعينه إلى البحيرة المرسومة بالزيت فى السقف . المطمورة التى وقف فيها الزورق .. وتبسم .. وتحسس خديه فشعر بأنهما ناحلان .

ومرت فترة سكون دخل بعدها البدوى فى حالة تدل على الاحتشاد والاهتمام الشديد . وقرب منه . وضع كفيه على بلورة المكتب بهدوئه التقليدى ونفخ من أنفه . وكانت عينا صلاح تكادان تثبا من محجريهما وهو ينتظر ماذا سيقول . وقال البدوى :

— إن شخصية هامة فى حجرتى بانتظار أن تأذن لها بالدخول .

واعتدل صلاح على الكرسى وقال :

— شخصية هامة ؟!.. من ؟!.. رئيس أى الأحزاب أو مندوبه جاء اليوم يراودنى ؟

تبسم البدوى وقال :

— رئيس حزب الفلاح ..

رد صلاح بسرعة :

— لن أقابله ..

ــ هل ترى هذا مفيدا ؟ إنه أولا : هروب من الموقف ، وثانيا : ليس من حسن المعاملة التى اشتهرت بها . وثالثا : فليس أحد يجبر أحدا على شىء لا يرضاه لنفسه ..

رد صلاح بحسم :

ــ مقنع .. دعه يدخل ..

ومضت ثوان انفرج الباب بعدها عن قامة .. طه النجومى .. ففغر صلاح فمه وأنساه الموقف ثقل الدعابة . فخرج من الكرسى وقابل أخاه . عانقه وقبله . ولم يدر لماذا جاشت نفسه . أحس كأنه فى حضن أم . إحساس مؤقت زال سريعا . واسترد وعيه :

ــ أهلا .. يا أخى ..

وكان طه يفحص المكان بقلب معرض ليس على استعداد أن يؤمن بشىء مما حوله حتى ولو كان جناحا من الفردوس . وأخذ صلاح يردد : أهلا يا أخى » .. وكان طه فى بدلة أفرنجى ولكن عليه عباءة أبيه وفى يده عصاه .. وأحس صلاح أنه يرى ملامح النجومى الكبير نفسه وخاف .. استوحش واستغرب الزيارة فضلا على أن بريد اليوم كان أردأ من الطقس نفسه .. يوم مشحون بالمصاعب .. وهو فى أعقاب مرض . ومنظره مهزول . وكان يتمنى ألا يراه أخوه فى هذه الحالة . خصوصا وأنه أحس أن الزهو يعلوه رويدا رويدا .

ودخل فراش بالقهوة . وأشعل صلاح سيجارتين . ولم يتكلم طه ، إلا بعد فترة . كان صلاح يعاود النظر حوله ليفحص دار المجلة من جديد ــ فى حدود ما يرى ــ كأنه سيشتريها اليوم فقط ، وأخيرا قال طه :

ــ كنت هنا .. فقلت فى نفسى أطمئن على صلاح ..

ــ شرف كبير .. عسى أن يتكرر ..

(للزمن بقية)

ـــ سيتكرر .. كثيرا بإذن الله وإذا شئت أنت ..

رد مستغربا :

ـــ أنا أرفض أن تزورنى ؟!

ـــ ستعرف قصدى .. (صمت) جئت اليوم لأرشح نفسى لمجلس النواب .. ودفعت التأمين . وقلت أمر على أخى فى القاهـرة .. (وزم شفتيه) .

ـــ أهلا .. أرجو لك النجاح ..

ـــ ولك ..

وساد صمت . كان طه يبدو مفكرا جدا .. لكنه ليس خائفا . وتكلم :

ـــ أنت تعرف الشيخ عبد الجليل .. لقد رشح نفسه أيضا عن الدائرة . وتعلم أن نجاحى ممكن ونجاحه ممكن .. معركة غامضة . ولذلك جئت إليك لتساعدنى .

أخذ صلاح يفكر فى أى نوع من المساعدة يقصده أخوه . أهو الدعاية فى المجلة .. محال .. أهو المساعدة بالمال ؟ إنه ليس محتاجا إلى ذهب .. أهو الدعاية باللسان له فى المنطقة الريفية الواسعة ؟ إن قلبه لا يرضى بهذا ولا ضميره فهو يأخذ على أخيه مآخذ يعرفها هو ويعرفها كل الناس . فماذا يقصد سليل النجومى الكبير ؟!

قال طه بعد أن ذهب الصمت بنصف أعصاب أخيه :

ـــ أخى .. أرجو أن تسمعنى .. أنت لك معجبون فى الدائرة كثيرون ، ولو رشحت نفسك معى كنا أخوين ضد الشيخ عبد الجليل ، وقبل الذهاب إلى لجان الانتخابات بيومين يتنازل أحدنا لأخيه . ولا فرق بينى وبينك .. ذلك خير من أن يأخذها رجل أنت تعلم مقدار الضغائن التى يكنها لبيتنا ولأرضنا .

ـــ ولكن .. يا أخي .. أظن أنها خصومات قديمة . وكنت أظن أنها ماتت .

ـــ لا . الخصومات فى الريف تورث مثل العقار . (وبابتسام) يبدو يا صلاح أنك صرت مدنيا جدا .

شعر صلاح أنه محاصر فقال فى رقة ولباقة :

ـــ نتعشى الليلة معا ونبيت معا ونبت فى الموضوع غدا صباحا .

رد طه بإهمال :

ـــ إن كنت تراه محتاجا للتفكير فأنا متنازل عن طلبى عندك وسألقى خصمى وحدى . ولو أن أبناء النجومى لا يجوز أن يكون هذا موقفهم .

رد صلاح بحماسة لا يدرى كيف أتت :

ـــ موافق .

عندئذ نهض طه واحتضن شقيقه وقبله . وقال له :

ـــ لا تتعب نفسك ولا تترك عملك وسأدفع لك التأمين . فقط اكتب لى طلبا .

ثم جلسا يتحدثان عن أشياء بعيدة عن كل هذا .. حتى كاد صلاح يشعر أنهما توأمان ، وما لبث طه أن ودع شقيقه بعد الغداء ومضى ..

* * *

سأل صلاح صديقه البدوى قائلا له وكأنه يدرس الموضوع من جديد :

ـــ ما معنى هذا ؟

فرد البدوى بهدوء :

ـــ إنه سيدخل الانتخابات مستقلا وأنت ستدخل مستقلا كذلك . إذن فلا ضير عليك . وغاية ما يطمع فيه أخوك بعد تدمير خصمكما أن تتنازل أنت له . وما دام هو متكفلا بمعظم النفقات فهى حركة يمكن أن تستفيد منها كشاب يطلب المستقبل .. وبعد هذا كله فالانتخابات كالبحر ربما قذف به

هو إلى صخرة ونجوت أنت .. وبذلك يكون القدر قد نجاك إذ تستطيع أن تعبر هناك عن رغبات نفسك للفلاح وعن أمانيك ، وتستطيع أن تفلت من حادثة توقف خروج المجلة بلباقة من صنع القدر .. أظن ذلك مفهوما .

سكت صلاح وعاد يسأل :

ـــ لكن يا أخى .. أنا أستبعد أن أخطف الثمرة من يد طه . أنت لا تعرفه .. يوم يلبس ملابس الراهب فثق أنه قادم على أعظم مخالفة دينية ..

ـــ ممكن .. أن يكون هذا حقا .. وعند ذلك ساومه على التنازل لتعوض خسائر المجلة ..

ـــ جميل .. إن لم يكن هذا صوابا كله فمعظمه صواب ..

***

ومن الغريب أن خطابات الإعجاب جاءت مرة أخرى تترى على دار المجلة الجديدة . ناس يهنئون صلاح بإقدامه على خطوة تمثيلهم فى المجلس ليدخل هناك تفكير جديد . وناس يهنئونه على مقالاته حول مصالح الفلاح وباستقلاله عن حزب اللوردات الذى يتبنى الأسمال البالية فى كل قرية . واختفت نهائيا خطابات الشتائم .. وارتفع التوزيع إلى حد كبير لكن .. كان معه أمل .

وحمل البدوى الأعباء كلها مع جماعة الشبان فى الوقت الذى بدا فيه صلاح ـــ بدعوة من أخيه ـــ ينزل إلى الريف استعدادا للمعركة .

أما قرية النجومى ذاتها فكانت تهتف باسم الأخوين معا ، وتساءل صلاح بينه وبين نفسه عن رجل غائب . عن محمد الجندى .. وقال فى نفسه بعد وهلة : « ما أشبه هذا بقولهم : يحيا الحق ، يحيا الباطل . أو يحيا الظلم ، يحيا العدل » . لكنه قبل هذا أملا فى المستقبل واعتمادا على لحظة قد لا تزيد على عدة ثوان يقابل فيها كل رجل لنفسه وجها لوجه ويقرر ـــ غالبا ـــ ما يراه حقا

وواجبا . وكان صلاح كبير العزاء فى هذا الموقف ، إذ لم تكن هناك نفقات دعاية كبيرة . و لم تكن المجلة فى هذه الأوقات — وهى غير طويلة — فى المكان الأول من اهتمامه .. فقد أيقن أن منبر مجلس النواب سيتسع لحماسته ومشاريعه . ولولا أن له ولأخيه عدوا مشتركا ما وصل إلى هذه الأمنية .

وفى القاهرة ذات مساء لقى السيدة أسرار . قابلته بضحكتها المعهودة فى دار المجلة وقالت له : أنا إن كنت لا أعرف الخوف فإنى أخاف عليك .. وخوفى عليك معناه أنك تعمل شيئا كبيرا . لنفرض أن يدك جرحت وأنت تحاول فتح باب عظيم . ولو لم يفتح الباب .. فستظل تنظر إلى الجرح فى يديك على أنه وسام . منحته لك يد مجهولة ، مثل الفرحة التى تدخل قلبك إذا ما هديت خطا رجل أعمى من رصيف إلى رصيف .. هذه الفرحة من الذى منحها لك ؟..

ثم عادت تضحك .. تقول الجد الجاد وتتوجه بضحكة مستهترة .. غريب .. عدة شخصيات لم تتكامل وتمازجت .. ثم حملقت فيه واستطردت — وافرض — لا سمح الله — أنك فشلت .. فماذا يجرى فى الدنيا .. (صمت طويل) طريق الفشل يبدو موحشا أول الأمر ، ثم لا تلبث أن تجد فيه من يؤنسك .. لأنه مأهول بالسكان .. هىء هىء هىء .. سأنتخبك .

* * *

وفى بقية القرى التى هى مفروض فيها أن يكون لعدوهم فيها نصيب أعظم — كانت المجاميع تهتف لصلاح النجومى .. رحبوا به كثيرا . و لم تقم معارك ذات شأن .. وبدا الشيخ عبد الجليل منكمشا ، حفنة من الناس ينادون به .. واستلزم ذلك أن يتردد صلاح على الريف كل يوم تقريبا .. كل يوم فى قرية .. وكان المثقفون أول الملتفين حوله .. الإخلاص يبدو فى عيونهم وحتى فى

لفحات أنفاسهم إذا هتفوا .

وقال البدوى له ذات ليلة :

ـــ إنى لا أعرف الكثير عن هذه المعارك فى الريف .. خذنى معك يا ابن النجومى .

وقد فعل . كان البدوى مذهولا . معظم الناس يهتفون للأخوين وقليل منهم يهتف لخصمهما . وكان الغبار معقودا فوق الرءوس الساذجة . والعصى تلوح فى الفضاء . وبدا سكون الحقول غير معقول وسط هذا الضجيج .

وعندما عاد البدوى وصديقه ليلة واحدة إلى القاهرة قال البدوى له :

ـــ لقد بقى ثلاثة أيام فمن منكما سيتنازل لأخيه بعد أن أصبحتما تملكان الأغلبية ؟

رد صلاح بفرحة :

ـــ نسيت أن أخبرك ، لقد أسرها أخى فى أذنى وسيعلن غدا تنازله وتأييده لى .. سيمشى كل شيء على ما يرام .

سرح البدوى . وكان فرحا . لكنه عاد فقطب حاجبيه . وقال لصلاح :

ـــ أمل كبير . المهم . أنك ستعبر عن مشاعرك الصادقة الجديدة نحو الفلاحين فى أرض النجومى والشيخ عبد الجليل وبقية أرض مصر .. وربما كان ذلك فى عون المجلة بطريقة أو أخرى .. (وصمت) ألا ترى أن الله قد خلق لنا اثنين من كل جارحة عزيزة .. عينان وأذنان .. ويدان ورجلان .. أصلى واحتياطى فى كل ما لا يستغنى عنه .. والطحال يخزن الدم ليحارب النزيف .. والقلب يخزن قوة احتياطية لنقدر على الجرى .. و ..

ـــ كفى .. إنى رأيت العيون هناك .. معظمها يبسم لى .. حتى المرضى بالرمد رأيت الحب فى أعينهم .. يا صديقى كفكف أملى اليوم .. فهو يركض

بى بسرعة مجنونة ولو انكفأ بى لأهلكنى . يا صديقى .. لم يكن عندك قبل شهرين كلمة أمل .. فهل أصبحت اليوم لا تملك لى كلمة يأس . أنا حقيقة محتاج إليها .

هز البدوى رأسه .. وتلاعب على فمه وفى بريق عينيه وفى حركة يديه وهو يدلك إحداهما بالأخرى — تلاعبت معانى فى غموض الطيف . والسماوات ذات الضباب . لكن صلاح كان يرى من بين كل هؤلاء قوسا عظيما ذا ألوان زاهية مثل قوس قزح . مثل قنطرة على الأفق المعتم .. فى ألوانه المشهورة التى ترمى إلى كل قلب بالبهجة الغامضة .

* * *

وطلعت صحف الصباح كلها تحمل نبأ تنازل طه النجومى عن الترشيح لأخيه صلاح مع تأييده الكامل ..

وقرأها الشاب فاستطارته الفرحة . كان باقيا ثلاثة أيام .. وكان عليه أن يلف الدائرة خلالها . وفى أول يوم كانت قرية النجومى أشبه بطيارة الورق ترتفع وتنخفض من الهتافات لصلاح . وبدا طه سعيدا تعيسا . وأحس أخوه أن أخاه الكبير كان مرغما . فلعله رأى كل شىء ضده فآثر أن يترك لأخيه خير الغنيمة فذلك خير من أن يأخذها عدوه ..

وفى بقية القرى كان الموقف مشابها لهذا مع اختلاف لا يزعج ، هو التذبذب المألوف فى المعارك والحميات والقضايا والمشاكل .. فليست بطبيعتها تمشى على أرض سوية أو قاعدة رياضية لأن مصدرها النفس .. والنفس هى الجب الذى لن نصل إلى نهايته حتى نهاية الدنيا .

وأحس صلاح بالجهد .. كان عليه أن ينفق .. كان يعطى المال للدعاية على أنه هدية حب .. وبشارة نجاح . وكانت عيون الناس فرحة به .. أما هو فقد

صار فى نصف وزنه وعادوته الحمى لكنه ما كان يشعر بشىء أكثر من أنه يرى على أفق الغد وهو اليوم السابق للانتخاب ـــ غبارا أثارته أقدام الفلاحين وحوافر ركائبهم وعجلات عرباتهم . زحف إلى يوم .. لم يبق عليه إلا يوم . يعنى بعد غد .

وكان عليه فى اليوم السابق إلى السعى نحو الصناديق أن يمر على المنطقة كلها . فركب عربة ومعه جماعة من حوارييه . معظمهم من الشبان المتحمسين .

كانت قرية النجومى فى ذلك اليوم صامتة . بسبب وفاة سيد يمت إليهم بصلة القربى . ولم يعنه الأمر . ففى أيام الأحداث الكبرى يلتفت الناس إلى الأحداث العادية .. نعم .. مثل حادث ولادة فى ليلة حرب . أو حادث وفاة اللحاد ليلة مات النجومى الكبير .. : « كل هذا لا يهم . المهم أن أرى غيرها من القرى » .

ودخل صلاح القرية الأولى وقابله أهلها بالهتاف له . والتفوا حوله حتى إذا ما أحاطوا به وجعلوه نهبا طيبا لسرور لا يوصف ، أخذوا فجأة يهتفون للشيخ عبد الجليل .

لم يصدق صلاح أذنيه . أحس أن هذه الأصوات ليست صادرة من الأرض . بل من أعماق كهوف مريبة مخيفة . ذات قرار معوج مظلم لم تهتد إليه عين ولو بمساعدة النور .. من أعماق نفوس أسىء توجيهها . غير أنه لم يعبأ . ترك القرية ومضى . وكان الشبان الذين يركبون معه يهتفون له وعيونهم ملأى بالدمع . أحسوا روائح غريبة فى جو هذه المعركة . لم تخطر على بال . روائح الصمود أمامها محتاج إلى عزيمة نموذجية . عزيمة الرسالات .

ودخل القرية الثانية . فجاء الناس يسعون . أخذوا يهتفون له ولكنه لم

يصدق أذنيه . لكن الهتاف كان حارا .. وبحت أصوات الشبان ، وسار والناس حولهم .. وفجأة يرن اسم الشيخ عبد الجليل بنفس الطريقة التى يرن بها فى القرية الأولى .

بدأ الشك يساور صلاح .. من الذى استطاع أن يعمل كل هذا ؟ هناك ثلاث قوى : قوة أخيه . وقوة خصمه . وقوة الناس نفسهم . فما هى القوة التى حولت مجرى الحوادث ؟

ولم يستطع الوصول إلى جواب .

لكنه فى يوم الانتخاب نفسه خرج مبكرا ..

كانت قرية النجومى صامتة .. لا تقول أحب أو أكره .. فلم يأبه بالأمر فهى مسقط رأسه ولن تخون موقفه .. حتى ولو خانت ستكون حنونا . أما القرية الأخرى فقد دخلها .

كانت الجموع كثيرة .. لقيته صامتة لا أحد يهتف .. صمت مطبق كأنه شبح جنازة . وفرك أذنيه . كاد يجن . وتلفت لمن حوله فى العربة والذين كانوا يهتفون فأخذو بالصمت فسكتوا .. وأخيرا وبعد فترة هى مؤكد قصيرة لكنها فى عمق عام من العذاب — بعد هذه الفترة ظهر رجل بدين يقف على عربة نقل وهو معروف .. إنه طحان فى وابور القرية . وجهه مطلى بالدقيق وكرشه أمامه إلى نصف متر .. وكان يرتدى ملابس غريبة عرفها صلاح فكاد يصرخ .. هى ملابس التمثيل .. ملابس الحارس التى كان صلاح يرتديها لحراسة الملك شهريار ليلة مات أبوه وجرى بها فى الظلام إلى البيت .

لم يعد شيئا خافيا ..

أيقن صلاح أن أخاه قد باعها لخصمه .. يعنى باعه وإن لم يكن فيها .. وكان هذا حقا ، فقد أخذ طه من منافسهم بضعة ألوف نظير هذا الثوب .

ولم يكن الفلاحون يقولون شيئا . كان الطحان البدين يترقص ومعه الرمح

فى صمت والفلاحون من حوله يشيرون بأيديهم علامة « لا » دون كلام .

أحس أنه كاد يتمزق .

لكنه سارع إلى القرية الأخرى . وقابله الناس صامتين . وما لبث أن رأى نفس المنظر فقد أدركوه بعربة ، ووقف الطحان يترقص . والناس يشيرون فى صمت « لا » .

لم تعد طاقة الإنسان فى صلاح قادرة على احتمال أكثر من هذا فقفل راجعا إلى قريتهم حيث قابل شقيقه .

كان الليل قد نزل . والنسيم يمرجح القنديل المعلق على باب الدوار . والقرية هادئة كأن شيئا لم يكن فيها . ودخل صلاح على أخيه وهم أن يمد إليه يده لكنه تذكر معانى كبيرة .. أهمها أن المعركة بينه وبين أخيه لم تجعل الشيخ عبد الجليل يسقط .

فقال لطه بعين حزينة :

ــ كيف بعتنى يا أخى ؟.

فرد متنصلا :

ــ أنا .. أنا بعت الثوب الذى رأيته على أنه (روب) من القصب .. ومن المؤكد أن ما حدث لا يخطر على بالى ..

ــ ما كنت أحسب أن الأخ يباع هكذا ..

وأطرق إلى الأرض .. إذ أيقن بما لا شك فيه أن التحالف قام بين طه وعبد الجليل . مؤلم أن يقع المرء بين سيف صديقه وسيف عدوه .. لكنه تماسك وقال فى نفسه : « حقيقة أن الأخ لا يباع .. لكن .. إذا ساقه أخوه إلى السوق .. فإنه سيباع بأى ثمن وربما بلا ثمن .. » .

ورفع رأسه . وكان يحس أن ظهره متصلب .. فشد قامته وألقى على الدوار .. موطن الجندى .. والنجومى الكبير .. وطه أخيه ــ نظرة أخيرة .. نظرة

رجل لم يعد يرى فى المكان شيئا .. تحبه العين .. أو حتى تألفه .. وكانت رائحة البن المحمص تفوح فى المكان ، وقارئ يقرأ فى الداخل لا يدرى أهو إنسان أو راديو . « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » .

وعند نهاية هذه الآية التقى نظر الأخوين . وكان الخبث يملأ عين طه أما عين صلاح فكانت فى شبه حالة بحيرة الزيت المرسومة فى سقف حجرته فى المجلة . لون قديم والحركة فيها معطلة وزورق الأحلام فى مائها الصافى معطل العدة .

ومد صلاح يده يصافح أخاه مودعا فى صمت ، ومد طه يده . كانت يد أخيه الكبير ثلجا فشعر صلاح كأنه محموم .. وركب العربة وتحرك مسافرا إلى القاهرة .

وعبر البرارى . ورأى بحيرة المنزلة والقمر على مائها الساكن وأصوات طيور توقوق من طيور أخرى تطاردها . والغاب والحلفاء تخشخش مع نسيم خريف فاتر ..

وسأل صلاح نفسه : « لماذا ينير القمر هذه الأماكن ؟» .

كان مجرد سؤال لا يعنى شيئا .. مجرد حركة ذهنية كحركة يد النائم أو قدمه . ولم يعنه أن يجد الجواب ، لأن هناك فى ذهنه وذهن جيله أسئلة أشد أهمية لا تجد لها جوابا حتى الآن ..

فى دار المجلة تلقاه البدوى فقرأ فى وجهه كل شىء .. « باعه أخوه بالآلاف لعبد الجليل وتركه ينفق الآلاف فخسر كل مدخراته . ولم يكن عيبا أن يثق .. أو حتى يغامر .. لكن العيب سيأتى فيما بعد . فيما إذا استسلم صلاح للموقف اليائس ، هذا ما قاله البدوى فى نفسه .

واستلقى صلاح على أريكة .. واستعاد وعيه قليلا .. وكان البدوى جالسا

تحت قدميه بعد أن تخلص صلاح من حذائه وجوربه وكان صديقه يدلك له أطرافه .

نظر صلاح إلى المنظر .. ملأ عينيه منه تماما .. رأى الهدوء الذى لا يتزحزح على وجه البدوى . وكان ينفخ من أنفه .. فتبسم صلاح . وقال بصوت هزيل :

ــ عزيزى ..

ــ نعم .. قل كل شىء .. عليك أن تلقى بفضلات الفشل فإن احتفاظك بها معوق للخطوة الجديدة .. لا تستصحب معك قطع القطن الملوثة بالصديد بعد الجراحة .. ارم بها فى أول صفيحة قمامة . من المؤكد أن طه هو الذى دبر معظم خطابات المدح والسب للمجلة .. كان أبى يمشى على رجل من خشب . وأنا أسعد منه حظا لأنى أمشى على رجلين .. ميراث النجومى أنفق على الحق وهو مثل النور محتاج إلى مصاريف .. هى هى هى .. أسرار هى التى قالت هذا .. لا تحاول أن تبصق لا إلى الداخل ولا إلى الخارج .. فإنك بلا شك قد جف ريقك .. الصباح الحقيقى قبله ليل حقيقى .. هات يدك اليمنى أدلكها لك لكى تمسك القلم منذ الغد .. « سيوفهم مع معاوية وقلبهم مع على » .. اغفر للذين يغشون فى سلعة الحرية .. أنت شاب أصيل ستسترد قواك فى أقرب فرصة .. وسنكتب معا فى مجلات وصحف أخرى . لن تذرف دمعة على (دار المجلة الجديدة) إلا مثل ما تذرف الدموع على دار مدرسة انتقلنا منها إلى مدرسة أعلى .. ذكريات .. ربما صنعتك ..

كان صلاح مغمضا عينيه يذكر بنصف وعيه ويسمع بنصف وعيه ، وخيل إليه أنه رأى أسرار وأنه أخذها وخرج ومعهم البدوى .

كانوا يمرحون فى حى العباسية الشرقية كما فعلوا قبلا .. والليل مظلم والوقت متأخر .. ووقفوا هناك من جديد على الحد الفاصل بين العقل والجنون

.. عادوا إلى نفس الليلة التى كانوا يظنون أنهم يحكمون الأشياء .. حتى ظلال الشجر على الأرض .. وتخيلوها خنادق أو صخورا أو زفتامراقا . والبدوى يعاكس كلبا رابضا وراء سور حديدى وينبح كل منهما على الآخر .. ثم يجرون ..

* * *

وفى صباح يوم قريب كان صلاح يدق على البدوى بابه ..

وشربوا اللبن معا .. عاد إليه بعض طعمه القديم .. وإن أحسا أنه غير جديد .. كأنه من البقرة المجهدة التى رسمها يوما ما صلاح على غلاف المجلة ..

ثم تأبط البدوى عصاه . وجر صديقه قائلا فى دعابة لطيفة ..

« تعال نتوكل .. » ..

سار .. خطاه تسبق خطا البدوى .. يفكر بذهن صاف .. كانا يقطعان شارع الخليج ، والبدوى مثل قائد فرقة موسيقية فقد كل أفرادها و لم يبق منها إلا هو والعصا .. « شارع الخليج أصله ترعة وردمت .. كان فيها سمك يأكل بعضه بعضا .. واليوم فيها ناس يتزاحمون يأكل بعضهم بعضا مثل السمك .. » .. ها ها ها .

ومر صلاح على النافذة المعهودة . الدنيا نهار .. قال صلاح عندما رآها : « لقد كبرت جدا .. جدا .. جدا.. » .

وقبل نهاية شارع حسن الأكبر انحرفا إلى دار دائرة المعارف .. صعد السلم .. هبت عليهما روائح مصطفى كامل وبذلته « البنجور » وتناهى إلى سمعهما أصوات آلات كاتبة وأجراس المكاتب ترن فى الصالة .. ووقف بصرهما على بندول الساعة .. على باب حجرة الأستاذ أحمد رشاد .. وكان تحته تمثال لسقراط .. وكأن الساعة تستمد حركتها من رأس الفيلسوف ..

ودخلا على الأستاذ .. رحب بهما .. لم يسأل عن الماضى .. كان كأنه

يعرف كل شيء .. وكان الشيب على رأسه زبدى اللون . والوجه منهوك عريق . وسأل صلاح :

ـــ إلى أين وصلتم ؟!..

فرد الأستاذ فى وقار :

ـــ لقد تركتنا ونحن فى حرف (الحاء) وعدت إلينا ونحن فى حرف (الخاء) .. الفرق .. يا بنى .. كما ترى نقطة واحدة ..

هز البدوى وصلاح رأسيهما .. نظر كل منهما إلى الآخر .

سمعا صوت « أسرار » تخاطب فى الصالة موظفا شابا .. هو نفس الذى كانت عنده فى المرة الأولى .. « إنها تكره الرءوس البيضاء لأنها تكره الحكمة .. ولذلك لن تتزوج الرجل الذى قالت عنه » ..

وظل الصديقان برهة ثم استأذنا فى الخروج لبدء العمل .. وقابلا الشابة .. وسلموا فى صمت .. وقالت « أسرار » :

ـــ لقد علمت أنهم الآن يشتغلون فى حرف (الخاء) فماذا يا ترى سيقولون عن الخير والخليقة والخبز وخيبر والخرافة والخبازى والخروب ؟!

ونزلت تجرى وتضحك وهى تقول :

ـــ إلى اللقاء الليلة .. لنهيم على وجوهنا فى العباسية الشرقية .. تشجعوا يا رجال فلا يزال فى الزمن بقية ..

القاهرة فى إبريل سنة ١٩٦٨ .

« تمت بحمد الله »

مكتبة مصر

سعيد جوده السحار وشركاه

تقدم قائمة بمؤلفات عمالقة القصة المصرية

الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

(١) القيطة
(٢) بعد الغرب
(٣) شجرة اللبلاب
(٤) شمس الخريف
(٥) غصن الزيتون
(٦) من أجل ولدى
(٧) سكون العاصفة
(٨) الماضى لا يعود
(٩) ألوان من السعادة
(١٠) أشياء للذكرى
(١١) النافذة الغربية
(١٢) الضفيرة السوداء
(١٣) حافة الجريمة
(١٤) الوشاح الأبيض
(١٥) الجنة العذراء
(١٦) خيوط النور
(١٧) الباحث عن الحقيقة
(١٨) البيت الصامت
(١٩) أسطورة من كتاب الحب
(٢٠) للزمن بقية
(٢١) جولييت فوق سطح القمر
(٢٢) قصة لم تتم
(٢٣) الدموع الخرساء
(٢٤) الوجة الآخر
(٢٥) حلم آخر الليل
(٢٦) لقاء بين جيلين
(٢٧)غرام حائر

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

رقم الإيداع ٢٥٥٢
الترقيم الدولى ٤ ـــ ٢١٨ ـــ ٣١٦ ـــ ٩٧٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٣٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه